الفصل الثاني

تراث المحافظين الجدد

في المدة التي سبقت حرب العراق ومهدت لها وتلتها، سُفحت كمية هائلة من الحبر على موضوع المحافظين الجدد واستيلائهم المزعوم على إدارة بوش. والقصة رائعة الحسن بلا نهاية لأنها تبدو وكأنها تفك مغاليق مفتاح تآمري لسلوك الإدارة. وقد شرحت إليزابيت درو في مراجعة الكتب في نيويورك ريفيو بوكس أن "المحافظين الجدد... هم المسؤولون إلى حد بعيد عن دخولنا في الحرب ضد العراق". وترددت أصداء هذا القول في أثناء حملة 2004 من المرشح الرئاسي الديمقراطي هوارد دين، الذي هاجم بالقول إن إدارة بوش قد تم الاستيلاء عليها من "المحافظين الجدد". وكثير من المعلقين أشاروا إلى الحقيقة المتمثلة في أن عدة مناصرين بارزين لحرب العراق من أمثال بول وولفوويتز، ودوغلاس فيث، وريتشارد بيرل، كانوا يهوداً، وحاجّ أولئك المعلقون في أن

obeikandl.com

سياسة العراق كانت مصممة في نهاية المطاف لتجعل الشرق الأوسط آمناً بالنسبة إلى إسرائيل. ووجَّه خط منفصل من المحاجّة اللومَ عن حرب العراق إلى الجناح الإشتراوسي من حركة المحافظين الجدد، متهماً ليو شتراوس بأنه كان "نصير (الكذب النبيل)، وهي الفكرة التي ترى أن من الواجب عملياً أن يتم الكذب على الجماهير، وذلك لأن نخبة قليلة فقط هي المؤهلة فكرياً لتعرف الحقيقة".[1]

الكثير من هذه الأدبيات في الحقيقة خاطئ، حركه سوء النية، والتشويه المقصود لسجل إدارة بوش ولمساندیها على حد سواء. ولو استمع المرء إلى الكثير من هذه الروايات، لظن أن المحافظة الجديدة كانت جرثومة غريبة تطوحت إلينا من الفضاء الخارجي وأصابت بعدواها الكيان السياسي الأمريكي. وربما لم يكن من المثير للدهشة أن بعض المحافظين الجدد ردوا الاتهام في المقابل بأن صفة المحافظين الجدد، على ألسنة منتقديهم، هي الكلمة الرمزية لكلمة يهودي، وذلك نظراً إلى أن نوع الاستيلاء المزعوم على الكيان السياسي الأمريكي مشابه جداً كله لأنواع المؤامرات التي ألقيت عند أقدام اليهود في تاريخ معاداة السامية.وقد قاد الهجومُ الشرسُ على المحافظة الجديدة في أعقاب حرب العراق محافظين جدداً آخرين إلى إنكار أن تكون المحافظة الجديدة قد وجدت مطلقاً، أو أن تكون لها أي علاقة خاصة بالسياسات التي اتبعتها إدارة بوش.[2]

وحقيقة المسألة هي أن المبادئ الرئيسية للمحافظة الجديدة، كما تطورت من منتصف القرن العشرين إلى اليوم الحاضر، هي

مبادئ متجذرة بعمق في متنوعات من التقاليد الأمريكية. المحافظة الجديدة مجموعة منسجمة من الأفكار، ومن الدعاوى، ومن الاستنتاجات المكتسبة من الخبرة التي يجب أن يحكم عليها بحسب ما هي عليه في حقيقتها، وليس على أساس من الهوية العرقية أو الدينية لأولئك الذين يعتنقون تلك الأفكار. وكذلك لا يفهم أي معنى من إنكار أن مثل هذه الحركة موجودة منذ أن كتب اثنان من عرابي المحافظة الجديدة وهما: إيرفنغ كريستول ونورمان بودهوريتز، مقالات قبل حرب العراق بوقت طويل عما كانت المحافظة الجديدة، وكانا سعيدين في استكشاف مناطق من الاتفاق والاختلاف في صفوف ناس متنوعين عرَّفوا أنفسهم بوصفهم محافظين جدداً.[3]

وأولئك الذين يحاجون بأن المحافظة الجديدة غير موجودة يشيرون إلى حقيقة هي أنه لا توجد "عقيدة" راسخة للمحافظة الجديدة، مثلما كانت الحالة، على سبيل المثال، مع الماركسية-اللينينية، وهم يلاحظون الخلافات والتناقضات التي توجد بين المحافظين الجدد الذين ادعوا لأنفسهم هذا اللقب. وهذا كله صحيح، ولكن حقيقة أن المحافظة الجديدة ليست كياناً واحداً لا يعني ضمناً أنها لا تستند إلى قلب من الأفكار المنسجمة. وبالأصح، إنها ملتقى تيارات فكرية قد أسفر عن مناطق من الغموض أو الاختلاف بين المحافظين الجدد.

جذور المحافظة الجديدة

كُتبت حتى الآن روايات متعددة عامة عن المحافظة الجديدة توفر استبصاراً في الجذور الفكرية للحركة. وكما لاحظنا سابقاً،

فإن كريستول وبودهوريتز كانا قد كتبا روايتيهما المعتمدتين عن الكيفية التي صارا من خلالها محافظين جديدين. وربما يكون أفضل التواريخ توازناً والذي كتبه أشخاص من غير المحافظين الجدد، هو ما كتبه اثنان من الصحفيين الفرنسيين، وهما: ألين فراشون، ودانييل فيرنيت، في عملها المعنون:المسيح المخلص المنتظر الأمريكي (لامريك ميسيانيك) (2004). وفي اللغة الإنجليزية يقدم جيمس مان خلفية شخصية عن نائب وزير الدفاع بول وولفوويتز في كتابه صعود إله النار (2004). وكان مري فريدمان قد كتب تاريخاً مفصلاً عن الجذور الفكرية اليهودية بوجه خاص لفكر المحافظة الجديدة، وهناك طبعاً أعمال نقدية كثيرة غير دقيقة ومعادية ومشوهة إلى حد بعيد.[4]

كليّة المدينة

تكمن جذور المحافظة الجديدة في مجموعة تلفت الأنظار من المفكرين اليهود في الأغلب الذين درسوا في كلية المدينة في نيويورك ابتداء من أواسط إلى أواخر الثلاثينيات من 1930 وفي مطالع الأربعينيات من 1940، وهي مجموعة ضمت كلا من: إيرفنغ كريستول، ودانييل بل، وإيرفنغ هاو، وسيمور مارتن ليبسيت، وفيليب سيلزنيك، وناثان غليزر، وبعد قليل، ضمت دانييل باتريك موينيهان. وقصة هذه المجموعة رويت في عدد من الأماكن، وبشكل مرموق على الخصوص في إذاعة عامة وثائقية، وفي كتاب متصل بذلك كتبه جوزيف دورمان وسماه: محاورة العالم. (2001).[5] وجميع

هذه الشخصيات جاءت من الطبقة العاملة، ومن خلفيات المهاجرين، ودرست في كلية المدينة في نيويورك لأن مؤسسات النخبة مثل جامعة كولومبيا وجامعة هارفارد كانت مغلقة في الأغلب أمام أمثال هؤلاء. وكانت تلك الفترة، مثل اليوم، واحدة من فترات الأزمة الشديدة في سياسات العالم، وكانت جماعة كلية المدينة في نيويورك مسيسة تسييساً كاملاً وملتزمة بسياسات الجناح اليساري. وقصة القبة 1 في مقصف كلية المدينة في نيويورك التي كانت تروتسكية، والقبة 2 التي كانت ستالينية، والمغازلة الأولية من إيرفنغ كريستول مع الأولى، هي الآن معروفة معرفة جيدة.

ومع ذلك فإن معظم الميراث المهم من مجموعة كلية المدينة في نيويورك كان ميراثاً شديداً من معاداة الشيوعية، مع نفور مساو لذلك تقريباً من الليبراليين الذين تعاطفوا مع الشيوعية ولم يستطيعوا أن يروا الشر الذي كانت تمثله. وإن فهم منشأ هذه المعاداة الليبرالية للشيوعية أمر حاسم لفهم أصول المحافظة الجديدة والمعارضة الموجهة إلى الهندسة الاجتماعية الطوباوية، هذه المعارضة التي تعتبر أبقى خيط يسري عبر الحركة.

لم تكن صدفة أن الكثيرين من مجموعة كلية المدينة في نيويورك بدؤوا تروتسكيين. فتروتسكي نفسه، طبعاً، كان شيوعياً، ولكن في هذه الفترة المتصلة بالجبهة الشعبية التي تلاها حلف هتلر- ستالين، وتلتها العودة إلى الجبهة الشعبية بعد الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي، فهم التروتسكيون فهماً أفضل من معظم الناس

المفارقة الساخرة المطلقة والوحشية التي مارسها نظام الحكم الستاليني. وتلك الوحشية هي التي قادت ستالين إلى الإيعاز بقتل تروتسكي في مدينة مكسيكو في عام 1940.

ومعاداة الشيوعية لدى اليسار الذي خاب فأله معاداة مختلفة بعض الشيء عن معاداة الشيوعية لدى اليمين الأمريكي التقليدي. لقد عارض هذا الأخير الشيوعية لأنها كانت ملحدة، وكانت متصلة بقوة خارجية معادية، وكانت ضد السوق الحر. وبالمقابل، فإن اليسار المعادي للشيوعية كان يتعاطف مع الأهداف الاجتماعية والاقتصادية للشيوعية، ولكنه طبعاً وصل في الثلاثينيات من 1930 والأربعينيات من1940 إلى إدراك أن "الاشتراكية الحقيقة الموجودة" قد صارت مسخاً من العواقب غير المقصودة التي قوضت تقويضاً كاملاً الغايات المثالية التي اعتنقها اليسار. وكان خطر النوايا الحسنة التي تنفذ إلى حدودها القصوى هو الموضوع الذي سيقوم عليه عمل حياة معظم أعضاء هذه المجموعة طوال الجيل التالي.

وفي حين توقف فعلياً كل أعضاء مجموعة كلية المدينة في نيويورك عن انتمائهم الماركسي مع وقت مجيء الحرب العالمية الثانية، فإن توقيت ومسافة تحولهم النهائي إلى اليمين كان متنوعاً: تحرك إيرفنغ كريستول إلى أبعد مسافة، وتحرك إيرفنغ هاو إلى أقل مسافة، وانتهى بل، وغليزر، وليبسيت، ومونهان إلى مكان ما بين الاثنين. كان التحول إلى اليمين لا مناص منه تقريباً، لا بسبب الاكتشافات فقط عن طبيعة الرعب الستاليني التي كانت تتسرب ببطء من الاتحاد السوفييتي، بل كان أيضاً بسبب أن الولايات

المتحدة الرأسمالية تدخلت ضد ألمانيا النازية ولعبت دوراً حاسماً في هزيمتها وفي هزيمة اليابان. لقد كانت ممارسة القوة الأمريكية غير المحدودة على ما يبدو، آنئذ، هي التي استحضرت ما اعتبره الجميع نتيجة أخلاقية للغاية للحرب العالمية الثانية.

تركزت الحياة الفكرية المستنبتة في نيويورك في أواخر الأربعينيات من 1940 والخمسينيات من 1950، حول مجلات مثل بارتزان ريفيو(المجلة الحزبية) وكومنتري (التعليق)، وكان الحوار يقوم على خلفية من تنامي الحرب الباردة والماكارثية، وهو ما قاد مع الزمن إلى المزيد من نقض الولاء والارتداد عن اليسار الذي ضخم صفوف المحافظين الجدد. وقد وثق نورمان بودهوريتز رحلته الخاصة إلى اليمين توثيقاً واسعاً، وتحت توليه التحرير في كومنتري تحولت هي إلى اليمين كذلك، لتكون هي الصحيفة الأولى المرشدة لما صار يعرف باسم فكر المحافظين الجدد.[6]

المصلحة العامة

هناك استمرارية تستحق الاعتبار بين معاداة الشيوعية من مجموعة كلية المدينة في نيويورك وبين التيار الثاني المهم من فكر المحافظين الجدد الذي نما من صحيفة ببلك إنترست (المصلحة العامة)، التي تأسست في عام 1965 على يدي إيرفنغ كريستول ودانييل بل (وهو الذي تم استبدال ناثان غليزر به في الحال بصفته محرراً مشاركاً). وتحولت السياسات الأمريكية تحولاً مؤثراً بحلول

أواخر الستينيات من 1960: ونتيجة لحركة الحقوق المدنية وحرب فيتنام، فقد تم تبديل اليسار الشيوعي القديم المنتمي للثلاثينيات من 1930 وأنصاره، موقتاً على الأقل، وحل محله اليسار الجديد الذي مثله توم هايدن والطلاب من أجل المجتمع الديمقراطي. وكانت تلك الفترة أيضاً فترة انتعاش واسع النطاق للهندسة الاجتماعية من ناحية الحكومة الأمريكية، في شكل حرب ليندون جونسون على الفقر وبرامج المجتمع العظيم. وكانت شخصيات مثل بل، وغليزر، وليبسيت قد استقرت الآن في الجامعات ووجد هؤلاء أنفسهم في موقف معارضة لجيل جديد من الراديكاليين الطلاب الذين هاجموا الجامعة نفسها بوصفها خادمة للرأسمالية الأمريكية وللإمبراطورية (الإمبريالية) الأمريكية، إضافة إلى مساندتهم لجدول أعمال تقدمي جديد، كان أساتذتهم يتعاطفون معه تعاطفاً غامضاً.

كانت أول معركة تكوينية شكلت المحافظة الجديدة هي القتال مع الستالينيين في الثلاثينيات والأربعينيات، وكانت المعركة الثانية هي التي ثارت مع اليسار الجديد ومع الثقافة المضادة التي فرخت في الستينيات من 1960. وكان للمعركة الثانية بعد خارجي وآخر محلي معاً. والمعارضة لحرب فيتنام ولدت جيلاً من اليساريين الأمريكيين الذين تعاطفوا مع أنظمة الحكم الشيوعية أو الماركسية في هافانا، وهانوي، وبكين، وماناغوا، وأدت كذلك إلى جدول أعمال محلي طموح سعى إلى التشبه بدول الرفاهية الأوروبية وإلى معالجة الكثير من الأسباب الداعمة لعدم المساواة الاجتماعية.

وكانت صحيفة ببلك إنترست قد تأسست على أيدي كريستول وبل، وذلك بدقة من أجل أن تلقي نظرة ناقدة، وإن تكن متعاطفة في الغالب، على الجزء المحلي من جدول الأعمال. وصارت هذه الصحيفة هي المقر لجيل من الأساتذة الجامعيين، وعلماء العلوم الاجتماعية، ومفكري جماعات البحث ومن جملتهم غليزر، ومونيهام، وجيمس كيو. ويلسون، وغلين لوري، وتشارلز مري، وستيفان وأبيغيل ثيرنستروم. لقد قدم هؤلاء الكتاب نقداً للمجتمع العظيم الذي وضع الأساس الفكري للتحول اللاحق إلى اليمين في السياسة الاجتماعية الخاصة بالثمانينات من 1980 وبالتسعينات من 1990.

وإذا كان هناك موضوع مفرد يعلو على نقد السياسة المحلية الاجتماعية الذي نفذه أولئك الذي كتبوا لصحيفة ببلك إنترست، فقد كان هو موضوع حدود الهندسة الاجتماعية. وقد حاجَّ هؤلاء الكتاب، في أن الجهود الطموحة التي تبذل في السعي للوصول إلى العدالة الاجتماعية، هي جهود تركت المجتمعات في الأغلب أسوأ مما كانت عليه من قبلُ، وذلك لأنها إما تطلبت تدخلاً ضخماً من الدولة مزق العلاقات العضوية الاجتماعية (على سبيل المثال، النقل القسري في سيارات الركاب) أو أنها أنتجت عواقب غير متوقعة (مثل الزيادة في الأسر التي فيها واحد من الوالدين نتيجة للرفاه الاجتماعي). وعلى هذه الصورة، كان هناك صلة مباشرة بين نقد السياسة الأمريكية العامة وبين المعاداة السابقة للشيوعية لدى جماعة كلية المدينة في نيويورك: فكلا الليبراليين الأمريكيين

والشيوعيين السوفييت سعى إلى غايات وجيهة، ولكنهم أضعفوا أنفسهم حين أخفقوا في أن يدركوا حدود الاختيار السياسي.

والأمثلة على هذا التركيز متوافرة. فقد كتب ناثان غليزر عن العواقب السلبية للعمل الإيجابي(*) من ناحية الطريقة التي وصم بها المستفيدين المقصودين وأقام حوافز معاكسة للتقدم الاجتماعي. وحاجَّ جيمس كيو. ويلسون في كتاباته المستفيضة عن الجريمة، أنه كان من الحماقة الاعتقاد أن السياسة الاجتماعية كانت تستطيع أن تصل إلى الأسباب الجذرية المزعومة للجريمة، مثل الفقر والعنصرية العرقية، وأن السياسات المعقولة لمحاربة الجريمة كان عليها أن تتعامل مع تخفيف الأعراض القصيرة الأجل. ومقالته المشهورة "النوافذ المهشمة" (كتبها مع جورج كيللينغ) حاجَّت أن أقسام الشرطة يجب أن تركز على القضايا الصغيرة من النظام الاجتماعي مثلما تركز على الجرائم الكبيرة، كان لها الأثر اللافت للأنظار في إقناع مدينة نيويورك في أن تنظف الكتابات البذيئة عن سيارات الطريق السائر تحت الأرض.(7)

وربما كان دانيل باتريك موينيهان أشهر ما يكون من أجل دراسته في عام 1965 بعنوان الأسرة الزنجية،التي حاجّت في أن الفقر الأسود له جذور معقدة في الثقافة وفي بنية الأسرة، ولا يمكن أن تنحل المشكلة من خلال الحوافز التي أخفقت في أن تأخذ

(*) سياسة أو برنامج يسعى إلى تصحيح التمييز السابق ضد السود وغيرهم من خلال إجراءات تضمن توفير الفرص المتساوية ولا سيما في التعليم والتوظيف. (الهوامش من صنع المترجم)

العادة الاجتماعية بالحسبان. وكان تقرير موينيهان موضع جدل شديد حين نشر لأول مرة وأدى إلى جدل مدو كانت له عواقب في موضوع "ثقافة الفقر". وتم توسيع نقد موينيهان على يد تشالز موري، الذي أشار إلى العواقب غير المتوقعة لبرامج الرفاه الاجتماعي مثل المعونة المقدمة للعائلات التي لديها أطفال يعتمدون عليها، وهو ما شجع الولادات خارج إطار الزواج وأسهم في ثقافة الفقر.[8] وهذا النقد لمعونة العائلات المعيلة للأطفال أدى في نهاية المطاف إلى إلغاء المعونة تحت قانون مصالحة المسؤولية الشخصية وفرصة العمل لعام 1996، والذي بادر في سنِّه مجلس الشيوخ الجمهوري ووقعه الرئيس بل كلينتون.

وقد عالجت صحيفة ببلك إنترست السياسة الداخلية معالجة حصرية. فتابع إيرفنغ كريستول تأسيس صحيفة مرافقة عن السياسة الخارجية، وهي ذا ناشيونال إنترست (المصلحة القومية) التي استضافت تحت إشراف محررها المؤسس، أوين هاريس، تنوعات كبيرة من الآراء في السياسة الخارجية الأمريكية،كانت بصورة مجملة على يمين الوسط. والنقد الذي بدأته ذا ببلك إنترست عن السياسة المحلية سوف يؤدي في نهاية الأمر إلى مضامين تتصل بالسياسة الخارجية الأمريكية، ولكن الاتصال لم يكن مباشراً ولم يُصنع هذا الاتصال أبداً من العديدين من المحافظين الجدد.

وأما أقرب أصولٍ لسياسة المحافظين الجدد الخارجية فتقع في مكان آخر.

ليو شتراوس

لقد كُتب من الهراء حول ليو شتراوس وحول حرب العراق أكثر مما كُتب فعلياً عن أي موضوع آخر. ونشر مارك ليللا حكاية طويلة مُعلِمة بيَّن فيها من كان ليو شتراوس، ودافع عنه دفاعاً قديراً في وجه الاتهامات عديمة التبصر التي قُذِفَت حوله من آن نورتون، وشادية دروري، وليندون لاروش، وآخرين بما معناه أنه طرح تعاليم سرية معادية للديمقراطية أو روّج الكذب في ما يخص المسؤولين العامين.[9] ومن بين الأسباب التي تحمل على القول إن من السخف التفكير في أن شتراوس كان له تأثير على السياسة الخارجية لإدارة بوش الحقيقة التي توضح أنه لم يكن هناك أي إشتراوسيين يخدمون في الإدارة في المرحلة التي سبقت ومهدت لحرب العراق. ولو أنك أردت أن تسأل ديك تشيني، أو دونالد رامسفيلد، أو الرئيس بوش نفسه ليشرحوا لك من كان ليو شتراوس، فإنك ستحصل، على الأرجح، على نظرات شاخصة فارغة.

إن فكرة التأثير الإشتراوسي قد اكتسبت الانتشار لأن بول وولفوويتز، نائب وزير الدفاع، درس فقط مدة وجيزة مع شتراوس ومع ألن بلوم الذي كان هو نفسه تلميذاً لشتراوس. ولكن وولفوويتز لم ينظر إلى نفسه أبداً بوصفه محمياً من شتراوس وتحت رعايته، إضافة إلى أن آراء وولفوويتز في السياسة الخارجية كانت متأثرة بمعلمين آخرين تأثراً أكثر بكثير جدا من تأثرها بآراء شتراوس، وعلى وجه الخصوص بآراء ألبرت ووهلستيتير.

كان ليو شتراوس منظراً سياسياً ألمانياً يهودياً درس تحت رعاية إرنست كاسيرير، وهاجر شتراوس هرباً من الحكم النازي إلى الولايات المتحدة في الثلاثينيات من 1930، وعلم في أغلب الأحيان في جامعة شيكاغو حتى وقت قصير قبل وفاته في عام 1973. ونستطيع أن نرى الكثير من عمل شتراوس بصفته رد فعل على نيتشه وهيدغر اللذين قوضا التقليد العقلاني للفلسفة الغربية من داخلها، وتركا الحداثة من دون أساس فلسفي عميق لمعتقداتها ولمؤسساتها الخاصة. وإضافة إلى ذلك، كافح شتراوس طوال حياته مع "المشكلة اللاهوتية السياسية"، وهي أن الوحي الإلهي والمزاعم فوق السياسية حول طبيعة الحياة الصالحة لا يمكن استبعادها من الفلسفة السياسية بالسهولة التي سبق أن رآها التنوير الأوروبي.

وكان رد فعل شتراوس على النسبية المعاصرة هو أن يسعى إلى استعادة أساليب الفكر الفلسفية السابقة للأساليب الحديثة، وذلك من خلال القراءة المتأنية للمفكرين السابقين، وأن يولِّد على وجه الخصوص تقويماً لجهود الفلاسفة السياسيين الكلاسيكيين ليبحث عن تعليل عقلي للطبيعة ولفهم علاقتها بالحياة السياسية. ولذلك فإن جملة كتاباته ليست كراسات عقائدية، بل هي بالأحرى مقالات تفسيرية طويلة ومكثفة عن أفلاطون، وثيوسيديريز، والفارابي، وابن ميمون، وماكيافيللي، وهوبز، وعن فلاسفة آخرين. فشتراوس لم ينتج عقيدة بالمعنى الذي أنتج فيه ماركس ولينين، ومن الصعب صعوبة غير عادية أن نستخلص من كتاباته أي شيء يبدو وكأنه تحليل للسياسة العامة.

إن شتراوس، طبعاً، كان يمتلك آراء سياسية: فقد كان يفضل تفضيلاً شديداً الديمقراطية الليبرالية على الشيوعية أو الفاشية، وكان يعجب إعجاباً كبيراً بونستون تشرشل في تحديه لهذه الإيديولوجيات الكلية، وكان قلقاً من أن الأزمة الفلسفية للحداثة قد تقوض ثقة الغرب بنفسه. ولكن ما أبلغه شتراوس إلى طلابه لم يكن مجموعة من توجيهات السياسة العامة، بل كان على الأصح رغبة في أن يأخذوا التقليد الغربي الفلسفي على محمل الجدية وأن يفهموه.

ويجادل مارك ليللا في أنه في الوقت الذي كان فيه شتراوس نفسه فلسفياً بعمق وبذل جهداً وانتباهاً لمنع تسيِيس أفكاره، فإن طلابه من الجيل الثاني، والثالث، وإلى ما لا يعرف من الأجيال بدؤوا في أخذ تعاليمه لا بوصفها دعوة إلى تساؤل مفتوح النهاية بل بوصفها تعاليم عقدية. وبناء على ما يقوله ليللا، فقد بدأ الطلاب بتسييس أفكار شتراوس وبربطها مع وصفات معاصرة معينة في السياسة العامة. ولعب اثنان من طلاب شتراوس أدواراً رئيسة في هذا الانتقال، وهما هاري جافا من كليرمونت، وألن بلوم المتوفى حديثاً، الذي أنمى ما حدده ليللا باسم جناحي الإشتراوسية: جناح "سوسا" والجناح "الفاغنري" على التوالي. وجافا، وهو يستمد بكثافة من إشارة جيفرسون إلى الحق الطبيعي في إعلان الاستقلال، ربط نظام الحكم الأمريكي بالتقليد الكلاسيكي للقانون الطبيعي. ومال طلابه إلى رؤية الولايات المتحدة بوصفها تمجيداً للتقليد الفلسفي المتولد من أفلاطون وأرسطو،

وعلى هذه الصورة مزجوا اهتمامات شتراوس الفلسفية مع القومية الأمريكية.[10]

ومن ناحية أخرى، مال بلوم إلى أن يكون أكثر تشاؤماً بكثير جداً بشأن العواقب المفكِّكة التي تنتج عن "أزمة الحداثة"، وهي الأزمة التي رأى بلوم أنه يجري استنفادها في السياسة الأمريكية وفي الحياة الاجتماعية. وكتاب بلوم الذي نشره في عام 1987 وكان من أفضل الكتب مبيعاً وبعنوان إغلاق العقل الأمريكي، ربط ربطاً مباشراً ورائعاً كتاب هيدغر ريكتوراتسريدي(خطاب القائد الموجه) مع الأزمة المعاصرة للجامعة الأمريكية، ومع الجنس، والمخدرات، والموسيقى واتجاهات أخرى في الثقافة الشعبية كذلك.[11] لقد لامس هذا الكتاب عصباً عارياً وحدد مشكلة حقيقية. إن النسبية الثقافية، وهي الاعتقاد أن العقل كان غير قادر على الارتفاع فوق الآفاق الثقافية التي ورثها الناس، قد صارت في الحقيقة مستقرة في الحياة الفكرية المعاصرة. وصارت شرعية عند مستوى عالٍ على أيدي مفكرين جادين مثل نيتشة وهيدغر، وانتقلت عبر بدع فكرية طارئة مثل ما بعد الحداثة والتفكيكية، وتُرجِمت إلى الممارسة بالأناسة (الأنثروبولوجيا) الثقافية وبأجزاء أخرى من الأكاديمية المعاصرة. وقد وجدت هذه الأفكار أرضاً خصبة في مذهب المساواة في الثقافة الأمريكية السياسية، والتي اعترض المساهمون فيها على أن يجري توجيه النقد إلى خياراتهم من "أسلوب الحياة". وليس هناك من شك في أن هذا النوع من النسبية كان واحداً من الشروط المسبقة لإخفاق العديدين جداً من

الأكاديميين ومن مديري الجامعات في الدفاع عن مثلهم العليا الخاصة في وجه الهجوم على الجامعات الذي حدث في الستينيات من 1960. لقد كان بلوم مهتماً بالأفكار السياسية وبالتعليم الليبرالي أكثر مما كان مهتماً بالسياسة، وقد أنكر علانية أنه كان محافظاً من أي نوع.

وكما لاحظنا سابقاً، فقد وجد مؤسسو حركة المحافظين الجدد، مثل دانيال بل وناثان غليزر، أنفسهم أيضاً على الجانب المحافظ من القتال مع اليسار الجديد ومع راديكالية الطلاب في أثناء الستينيات من 1960. وما قدمه بلوم لاحقاً، وهو الذي لم يكونوا يستطيعون أن يفصلوا فيه الكلام في ذلك الوقت كان فهماً أعمق بكثير لمصادر الضعف الذي يعتري الديمقراطية الليبرالية المعاصرة. وأنواع المفكرين الفلسفيين، من أمثال إشعيا برلين وكارل بوبر، الذين كانوا كثيراً ما يُستَنجد بهم ليدعموا وليدافعوا عن مجتمع ليبرالي، تعددي، لم يكونوا في أي مكان قرب المستوى الفلسفي الرفيع لشتراوس. وهكذا فلربما لم تكن مفاجأة أن أولئك الذين تأثروا بشتراوس، أو جافا، أو بلوم كان ينتظر أن يبدؤوا بالانتقال إلى أوساط المحافظين الجدد خلال الثمانينيات من 1980.

هناك فكرة واحدة معينة مرتبطة مع شتراوس والإشتراوسيين وليس لها علاقة مع السياسة الخارجية لإدارة بوش وهي: فكرة "نظام الحكم". ومركزية نظام الحكم للحياة السياسية لا تأتي من شتراوس بل تأتي في نهاية المطاف من قراءة أفلاطون وأرسطو،

وهما اللذان يتحدثان كلاهما حديثاً مطولاً عن طبيعة أنظمة الحكم الأرستقراطية، والملكية، والديمقراطية وآثار تلك الأنظمة على طبع الشعب الذي يعيش تحت حكمها. ويفهم أفلاطون وأرسطو كلاهما نظام الحكم لا في الطريقة الحديثة، بوصفه مجموعة من المؤسسات الرسمية المرئية، بل بالأحرى بوصفه طريقة حياة تقوم فيها المؤسسات الرسمية السياسية والعادات غير الرسمية بتشكيل بعضها بعضاً بشكل مستمر. ونظام الحكم الديمقراطي ينتج نوعاً معيناً من المواطنين: ومن هنا جاء الوصف المشهور للرجل الديمقراطي من سقراط، في الكتاب 8 من كتاب الجمهورية، وهو: "ثم قلت: إنه يعيش أيضاً بحسب كل يوم بيومه، ويشبع الرغبة التي تخطر له، ففي مرة يشرب ويصغي للناي، وفي أخرى يتجرع الماء ويخفف وزنه، والآن يمارس الرياضة، ومرة ثانية يتبطَّل ويهمل كل شيء، وأحياناً يقضي وقته وكأنه مشغول بالفلسفة. وفي كثير من الأحيان يشارك في السياسة، متنقلاً، يقول ويفعل أي شيء يخطر له، وإذا حدث في أي وقت وأعجب بأي جنود، فإنه يلتفت في ذلك الاتجاه، وإذا كانوا جامعي المال، فهو يلتفت في ذلك الاتجاه. وليس هناك نظام ولا ضرورة في حياته، ولكنه يسمي هذه الحياة حلوة، وحرة، ومباركة، وهو يتابعها على الدوام".[12]

ومن بين المفكرين السياسيين المحدثين كان أليكسيس توكفيل هو الذي وصل إلى أقرب ما يكون إلى الإمساك بهذا المعنى القديم لنظام الحكم. فعندما وصف نظام الحكم الأمريكي في الديمقراطية في أمريكا، بدأ بتحليل مؤسساتها الرسمية: الدستور،

والفيدرالية، وطبيعة القوانين في الولايات الأمريكية المختلفة. ولكن ما كان متسماً بالبصر الثاقب على وجه خاص في كتاب توكفيل هو ملاحظاته حول عادات الشعب الأمريكي، وتقاليده، وأعرافه الاجتماعية: نزعتهم إلى الارتباط الطوعي، وطبيعة تدينهم، ومبادئهم الأخلاقية، واعتزازهم المفرط بمؤسساتهم الديمقراطية الخاصة. وتوكفيل الذي انحدر هو نفسه من أسرة أرستقراطية فرنسية، كان له رأي في آثار الديمقراطية على الطبع الإنساني هو أقل تغرضاً نوعاً ما من رأي سقراط فيها، ولكن توكفيل مثل سقراط كان يعتقد أن آثار نظام الحكم على الطبع هي آثار مركزية من أجل الوصول إلى فهمٍ لطبيعة نظام الحكم. وجادل توكفيل أن نظام الحكم الأمريكي كان قد تأسس على فكرة المساواة التي حددت مؤسساته السياسية ولكنها تغلغلت بالإضافة إلى ذلك في سلوك مواطنيه ومعتقداتهم. وهذه العادات غير الرسمية، وهي الطبقات السوسيولوجية والأنثربولوجية من الحياة السياسة، ساندت بدورها وجعلت من الممكن وجود المؤسسات السياسية الرسمية. وهكذا فنظام الحكم، مفهوماً في هذا المعنى الواسع، كان هو المفتاح للوصول إلى فهمٍ للحياة السياسية.

والموضوع الذي يظهر في كتابات شتراوس وكتابات العديدين من طلابه هو دور السياسة في تشكيل أنظمة الحكم. وفي الحق الطبيعي والتاريخ (1953)، ينتقد شتراوس المفكر البريطاني المحافظ إدموند بيرك على مجادلته في أن النظم السياسية الصالحة مالت إلى أن تكون مستندة إلى التراكم التاريخي للتقاليد،

والعادات، والقيم، والأعراف. واعتقد شتراوس، مثل أفلاطون وأرسطو، أن مناقشة غايات الحياة المشتركة لا يمكن أن تستبعد من الحياة السياسية استبعاداً تاماً، مثلما حاول أن يفعل المشروع الحديث الليبرالي. وزيادة على ما تقدم (كي نضعها في مصطلحات غير إشتراوسية)، فإن المؤسسات الرسمية السياسية لعبت دوراً حاسماً في تشكيل الأعراف والعادات الثقافية غير الرسمية. وهناك الكثير من المناقشات في صفوف الإشتراوسيين حول "تأسيس" نظام الحكم، على الرغم من أن ذلك كان دائماً تقريباً في سياق حالات تاريخية مثل صولون، أو لايكورغوس، أو الآباء المؤسسين. وبالنسبة إلى الحالة الأخيرة، فإن جميع الإشتراوسيين فعلياً، سواء من جناح سوسا أو الجناح الفاغنري، يعتقدون أن الطبع الأمريكي قد تشكل تشكلاً حاسماً بالمؤسسات السياسية التي اختارها الأمريكيون بأنفسهم في المدة الواقعة بين 1776 و 1789. وهذه المؤسسات، بدورها، لم تكن ببساطة مصادقات على عملية القانون العام المشترك الطويلة الأمد، ومن القاعدة إلى الأعلى وفق ما يرى بيرك. وكانت أحياناً مطلعة مثقفة من خلال الحوار العقلاني العلني، من مثل ما احتوت عليه أوراق الفيدرالي، التي ارتفعت من حين إلى آخر إلى مستوى التأمل الفلسفي الأصيل.[13] وهذا الرأي في مركزية السياسة، بالمناسبة، كان يشارك فيه توكفيل الذي كان يعتقد أن فكرة المساواة السياسية المركوزة في المؤسسات الأمريكية فسَّرت العادات والأعراف التي صار الأمريكيون لاحقاً يبدونها.

وهكذا فإن شتراوس لم يكن معارضاً للسياسة ولا معارضاً للدولة، وهو، مثل أرسطو، اعتقد أن البشر سياسيون بالفطرة ولم يصلوا إلى ازدهارهم الكامل إلا بالمشاركة فقط في حياة المدينة. وهذا هو السبب الذي من أجله كان يوجد لدى الجناح الإشتراوسي من حركة المحافظين الجدد دائماً مشكلة مع المحافظين أنصار مذهب حرية الإرادة. إن أنصار مذهب حرية الإرادة يفهمون الحرية فهماً سلبياً فقط، مثل الحرية من سلطة الحكومة. وبكلمات آدم وولفسون، "إن أنصار مذهب حرية الإرادة ينهضون إلى الدفاع عن كل حرية قابلة للتصور غير حرية الاستقلال الذاتي.... وبالنسبة إلى المحافظين الجدد، فإن الطريق الحقيقي إلى العبودية يكمن في جهود أنصار مذهب حرية الإرادة وجهود نخب الجناح اليساري الرامية إلى فرض سياسة اجتماعية معادية للديمقراطية، وكل ذلك باسم الحرية. ولكنها حرية ضيقة، مخصخصة تلك التي يتم إحرازها. ونتيجة لذلك يُثَبَّط الاهتمام النشيط والحيوي في القضايا العامة. ويكون كل شيء مسموحاً ما عدا القول في تشكيل روح الجماعة". [14] وهكذا، ففي حين كان الإشتراوسيون والمحافظون الجدد بصورة أكثر إجمالاً متحالفين تعبوياً (تكتيكياً) مع المحافظين التقليديين ومع أنصار مذهب حرية الإرادة على قضايا مثل إصلاح الرفاه الاجتماعي، فهم مع ذلك قد فهموا المشكلة فهما مختلفاً. وقد ركزوا الاهتمام على الآثار المفسِدة للرفاه الاجتماعي على شخصية الفقراء، ولم يعارضوا تدخل الدولة بحد ذاته من جهة أن المعارضة مسألة مبدأ.

لقد وضعت إدارة بوش "تغيير نظام الحكم" في المقدمة وفي المركز في سياستها الخارجية وتواصلت مع القوة العسكرية وأطاحت نظامي الحكم في أفغانستان وفي العراق. هل هذا النوع من السياسة ينبع من فهم مركزية نظام الحكم مثلما فهمه شتراوس وأتباعه؟ من بعض الوجوه ينبع ومن بعضها لا ينبع، إلى حد معين يوضح الصعوبة الشديدة لترجمة الأفكار الفلسفية إلى سياسات واقعية.

والجزء الصحيح للمضمون المفهوم من ذلك هو أن هناك مشكلات سياسية معينة لا يمكن حلها إلا من خلال تغيير نظام الحكم. أي أن أنظمة الحكم تشكل وتعكس طرق الحياة الواسعة، وعلى الرغم من أن سقراط لا يتحدث عن السياسة الخارجية، فإن من العسير أن نتخيل بالنسبة إليه أن طبيعة نظام الحكم لن تؤثر على السلوك الخارجي للمجتمع. وهذه الفكرة مفهومة ضمناً في نظريات العلاقات الدولية المعاصرة عن "السلام الديمقراطي: الأمم الدول ليست صناديق سوداء أو كرات بليارد تتنافس على السلطة بعدم مبالاة، كما يشاء ذلك الواقعيون. السياسة الخارجية تعكس قيم مجتمعاتها الساندة لها. وأنظمة الحكم التي تعامل مواطنيها هي معاملة غير عادلة يرجح أن تفعل الشيء نفسه مع الأجانب. وهكذا فإن الجهود المبذولة لتغيير سلوك أنظمة الحكم الاستبدادية أو الشمولية من خلال المكافآت والعقوبات الخارجية سوف تكون دائماً أقل فاعلية من تغيير الطبيعة الساندة لنظام الحكم. فبولندا، وهنغاريا، وتشيكوسلوفاكيا كانت أنظمة حكم شيوعية وأعضاء في

حلف وارسو قبل عام 1989، وتم تخفيف التهديد الذي مثلته لأوروبا الغربية في نهاية الأمر لا من خلال صفقات ضبط الأسلحة مثل مفاوضات القوات التقليدية في أوروبا، بل من خلال تحويل تلك الدول إلى ديمقراطيات ليبرالية.

حتى الآن، جيد جداً: تغيير نظامي الحكم في أفغانستان وفي العراق هو في نهاية المطاف أفضل ضمانات لئلا يهددا الولايات المتحدة أو جيرانهما مثلما فعل الطالبان وصدام حسين. وفهم شتراوس لمركزية السياسة كان سيقترح أيضاً أن التغيير الناجح لنظام الحكم سيكون له على المدى الطويل أثر إيجابي على عادات وأعراف المجتمع. إن استبداد صدام حسين ولَّد السلبية والجبرية، ناهيك عن ذكر رذائل القسوة والعنف، في حين أن العراق الديمقراطي سوف يعزز كما هو مفترض اعتماداً أكبر للفرد على نفسه.

ولكن الفهم الصحيح لتفسير شتراوس لنظام الحكم كان سيرفع أيضاً أعلاماً حمراً إشارات للتنبيه على الجهد الأمريكي لإحداث تغيير نظام الحكم وإنجازه. فأنظمة الحكم بموجب هذا الفهم ليست مجرد مؤسسات رسمية وهياكل سلطة، إنها تُشكل المجتمعات الساندة لها وتتشكل على أيديها. إن القواعد غير المكتوبة التي يتصرف الناس بموجبها والمستندة إلى الدين، والقرابة، والخبرة التاريخية المشتركة، هي أيضاً جزء من نظام الحكم. وفي حين تقترح الفلسفة السياسية الكلاسيكية أن تأسيس نظم حكم جديدة يستطيع أن يقود إلى طرق جديدة للحياة، فإن

هذه الفلسفة لا تجادل في أنها سهلة التأسيس بصورة خاصة. ويشدد أفلاطون خصوصاً على الحاجة إلى شيء ما مثل دين مدني لإقناع الناس أن نظامهم السياسي هنا والآن مؤسس في النظام الأوسع من الكون. وهذا ما هو مقترح في تفصيلات سقراط على أسطورة إر(*) في الكتاب 10 من كتاب الجمهورية وما اقترحته المناقشة المطولة للدين في القوانين، في الكتاب نفسه.وإذا كان هناك أي موضوع مركزي لارتياب شتراوس بشأن مشروع التنوير الحديث فهو فكرة أن العقل وحده كاف لتأسيس نظام سياسي طويل البقاء أو أن المزاعم غير العقلانية للوحي يمكن استبعادها من السياسة.

ولذلك، فإن تأسيس نظام سياسي جديد هو عمل صعب، وهو مضاعف الصعوبة بالنسبة إلى أولئك غير المنغمسين في عادات الناس الذين يشرعون لهم، وفي أعرافهم، وتقاليدهم. ومن وجهة تاريخية، فإن قلة من الإداريين في الإمبراطورية الأمريكية في ما وراء البحار، مع الاستثناء الممكن لدوغلاس ماك آرثر، هم الذين أظهروا قابلية كبيرة لمثل هذا النوع من العمل.(15) لقد مالوا إلى استحضار خبرتهم الأمريكية إلى الأراضي الأجنبية، بدلاً من رؤية المؤسسات تبرز من عادات الناس المحليين ومن خبرتهم. ليس هناك

(*) في هذه القصة يموت رجل اسمه إر ويرى الحكم على الموتى الصالحين والطالحين، ثم يعود إلى الحياة ليروي ما رآه، وبالتالي يختار كل شخص حياة جديدة له، وهذه القصة مركزية في فلسفة الاختيار في الغرب، وكل ما جاء بعدها استفاد منها. وهي تناقش مسألة الثواب والعقاب بعد الموت.

obeikandl.com

اعتقاد إشتراوسي بعمومية الخبرة الأمريكية، فلا شتراوس ولا أي فيلسوف من الفلاسفة السياسيين القدامى اعتقد أن الديمقراطية كانت نظام الحكم البديل تلقائياً الذي تعود إليه المجتمعات حين تزاح عنها الديكتاتورية.

يقول توكفيل: إن مسيرة المساواة هي بفضل العناية الإلهية، وإن الديمقراطية تكمن في مستقبل كل شخص.[16] ولكنّ هناك اختلافاً كبيراً بين توكيده لاتجاه عريض، تاريخي دام قروناً نحو الديمقراطية وبين الاعتقاد أن الديمقراطية المستقرة تستطيع أن تؤسَّس في مكان وزمان معينين. لقد قضى توكفيل قدراً كبيراً من الوقت وهو يشرح لماذا عملت الديمقراطية في الولايات المتحدة على نحو أفضل مما عملت به في بلده فرنسا، وذلك بالاستناد إلى وجود ما يدعى الآن "البنى الساندة" من مجالات الثقافة والممارسة الاجتماعية. وهكذا فان فهماً اشتراوسياً لأهمية نظام الحكم تضمن أمرين هما أن تغيير نظام الحكم كان ضرورياً لإحداث تغييرات معينة في السلوك، وأنه كان من الصعب للغاية إنجاز ذلك.

ألبرت ووهلستيتر

لم يقل ليو شتراوس فعلياً أي شيء حول السياسة الخارجية، ومع ذلك، فإن الكثيرين من الطلاب أو طلاب الطلاب ربما كانوا قد سعوا إلى ترجمة أفكاره الفلسفية إلى سياسات. ومن جهة أخرى، لا يمكن قول الشيء نفسه بالنسبة إلى ألبرت ووهلستيتر

الذي كان أستاذاً لكل من بول وولفوويتز، وريتشارد بيرل، وزالماي خليل زاد، وآخرين من الناس ممن هم في إدارة بوش أو قريبون منها.

كان ووهلستيتر منطقياً رياضياً عمل في مؤسسة راند في أيام مجدها في الخمسينيات من 1950، ثم درَّس لاحقاً في جامعة شيكاغو. واتسمت مسيرته العملية باهتمام طويل الأمد بقضيتين مركزيتين. وكانت القضية الأولى تتصل بالردع المتطاول في المدة. وكان ووهلستيتر يجادل ضد الاعتقاد الذي كان ينادي به في مطالع أيام الحرب الباردة الإستراتيجيون من أمثال الجنرال الفرنسي بيير غالوا، وهو الذي كان يرى أن الردع النووي في حده الأدنى سيكون شكلاً رخيصاً وفعالاً من أشكال الدفاع الوطني. وكان ووهلستيتر معروفاً أفضل معرفة في أوساط السياسة العامة بسبب دراسته في عام 1954 في راند عن قواعد القاذفات، وهي الدراسة التي بينت قابلية القاذفات النووية الأمريكية المتوسطة المدى الموجودة حول محيط الاتحاد السوفييتي للتعرض لهجوم استباقي. إن مجرد امتلاك رادع نووي ببساطة لم يكن كافياً، وكان يجب على الدول أن تقلق بشأن قابليتها للهجوم في سيناريوهات القتال الحربي النووي. وقد أسَّست هذه الدراسة مفهوم الضربة الأولى/الضربة الثانية التي صارت عنصراً أساسياً في نظرية الردع للحرب الباردة.[17]

وكان الاهتمام الثاني من اهتمامات ووهلستيتر الطويلة الأمد هو انتشار الأسلحة النووية. وقد كان ووهلستيتر مرتاباً في الطريقة التي احتفظ فيها نظام عدم الانتشار، والذي نما في

أعقاب معاهدة عدم الانتشار لعام 1968، بالحق في قوة نووية مدنية في الوقت الذي يحاول فيه النظام أن يمنع انتشار الأسلحة النووية، والنوعان من التقانة، بالنسبة إليه، لا يمكن فصلهما فصلاً قابلاً للتحقق منه. والكثير من مخاوف ووهلستيتر يجري استخدامها حتى الاستنفاد في الشرق الأوسط اليوم، وفيه أكدت إيران حقاً بموجب معاهدة عدم الانتشار في إنتاج يورانيوم مخصب من أجل الطاقة النووية المدنية، وهي عملية توفر غطاء ممتازاً لبرنامج أسلحة نووية سري.

وقضية الانتشار النووي كانت مرتبطة، في عقل ووهلستيتر، بالردع المتطاول. فعلى الرغم من أنه قد يكون من المعقول أن نتصور أن عالماً بعدة دول نووية قد يصير مستقراً من خلال الردع المتبادل، فإن هذا لن يحدث ما لم تحقق تلك الدول قدرات موثوقة للضربة الثانية. أما القوى النووية الصغيرة والحديثة المنشأ فقد كان يحتمل احتمالاً أكثر بكثير أن تعزز هذه الدول عدم الاستقرار عن طريق إغراء الخصوم باتخاذ إجراءات استباقية.

وليس من الواضح إن كان ألبرت ووهلستيتر قد سبق له أن توصل إلى اعتبار نفسه محافظاً جديداً، ولكنه هو وطلابه اندمجوا اندماجاً منسجماً انسجاماً كاملاً قريباً مع هذه الحركة بسبب رأيه المظلم بالتهديد الذي طرحه الاتحاد السوفييتي. ولم يقبل ووهلستيتر الحكمة التي كان متعارفاً عليها، التي تلقيناها من الستينيات من 1960 ومن السبعينيات من 1970، وهي أن التدمير المتبادل المحقق سيكون كافياً لردع الاتحاد السوفييتي. وجادل

ووهلستيتر أن التهديد بمسح عشرات أو مئات من الملايين من المدنيين كان لاأخلاقياً وغير قابل للتصديق معاً. ولاحظ أنه مع ازدياد دقة الصواريخ البالستية العابرة للقارات ومع نشر الرؤوس الحربية المتعددة، يمكن، على سبيل المثال، أن يصبح ما يدعى حرب القوة المضادة حرباً قابلة للتفكير فيها، إذا أطلق الاتحاد السوفييتي ضربة أولى على القواعد النووية الأمريكية، مدمراً بذلك مجمل القوات النووية الأمريكية المتمركزة في قواعد أرضية ومستبقياً لديه أسلحة كافية لردع الضربة المضادة، المتمركزة في الغواصات، على المدن.

وعلى الرغم من أن معظم سيناريوهات القوة المضادة سوف تجلب على الأرجح أيضاً موت الملايين من الناس على كلا الجانبين، من خلال تساقط الغبار الذري، ومن خلال الآثار الثانوية الأخرى، فإن مثل هذه الحرب كانت حرباً يمكن التفكير فيها على الأقل، بالمقارنة بحروب الإبادة النووية المضادة للقيم، والتي استهدفت المدن. وجادل ووهلستيتر أن الاتحاد السوفييتي كان قد قبل بخسائر على ذلك المقياس لغايات سياسية في الماضي، ولذلك، فقد لا يكون مرتدعاً دائماً بوضعية قوة هي عرضة للوقوع تحت هجوم قوة مضادة في المستقبل.

وكان ووهلستيتر، وولفوويتز، وبيرل، وحلفاء سياسيون معهم، مثل عضو مجلس الشيوخ هنري ام. "سكوب" جاكسون (إضافة إلى مسؤولين سابقين مثل بول نيتز، الذي عمل مع وولفوويتز في ما يدعى الفريق ب الذي دقق النظر في التهديد السوفييتي)، قد

اصطفوا ضد هنري كيسنغر ووسطيي الجمهوريين والديمقراطيين الذين سعوا إلى استخدام السيطرة على الأسلحة الإستراتيجية للاحتفاظ بالتدمير المتبادل المحقق. وانتقد هؤلاء معاهدة سولت، ومحادثات تحديد الأسلحة الإستراتيجية، بشأن مفاوضات الأسلحة النووية الإستراتيجية في السبعينيات من 1970، وذلك من أجل فشلها في تحديد قدرات القوة المضادة السوفييتية المتنامية، والتي تؤدي بذلك إلى إضعاف الردع.

وهكذا فإن ووهلستيتر اشترك مع أقدم المحافظين الجدد في نظرتهم الحاقدة على الاتحاد السوفييتي، ومعهم ومع طلاب شتراوس اشترك في الاعتقاد أن أنظمة الحكم كانت ذات أهمية للسياسة الخارجية. والمنفعة التي وضعها على الطاولة ولم يضعوها هم، كانت هي خبرته في العلاقات الدولية، والسياسة الدفاعية، وقضايا الأمن. وفي أثناء أواخر السبعينيات من 1970 والثمانينيات من 1980، صرف ووهلستيتر انتباهه إلى الخليج الفارسي، والعراق، والحرب الإيرانية العراقية، ومشكلة الانتشار النووي الناشئة في الشرق الأوسط. وبهذا لعب هو وطلابه دوراً حاسماً في ترجمة مجموعة عريضة، عامة من أفكار المحافظين الجدد إلى تفضيلات لترجيح سياسة خارجية محددة. ومن خلال تأثير ووهلستيتر على أناس من أمثال روبرت بارتلي، محرر صفحة الرأي لوقت طويل في وول ستريت جورنال، صارت هذه التفضيلات تحدد الخط المتصلب البديل لكيسنغر وللانفراج في العلاقات الدولية، وتم دمجها في السياسة حين تم انتخاب رونالد ريغان رئيساً.

والخيط المستمر الذي كان يسري في جميع عمل ووهلستيتر كان هو التأثير على حرب دقة التهديف المتزايدة. فعلى المستوى النووي، فإن مركبة معاودة الدخول إلى جو الأرض(*) القابلة للتهديف المتعدد بشكل مستقل جعلت من الممكن توجيه ضربة القوة المضادة إلى الصوامع المصلَّدة للصواريخ، وفي الوقت نفسه، وفي حالة التهديف الدقيق في الحرب التقليدية جعلت الحاجة إلى تسوية مدن كاملة بالأرض مع سكانها أمراً قديماً، وذلك مثلما حدث في أثناء حملات قصف الحلفاء لألمانيا ولليابان. ورأى ووهلستيتر في هذا التهديف الدقيق أمراً أكثر إنسانية من الحرب التي أخذت حياة مئات الآلاف من المدنيين الأبرياء في الحرب العالمية الثانية في مدن مثل دريسدن، وهامبورغ، وطوكيو، وهيروشيما.

ولكن الظهور الفعلي للتهديف الدقيق في الحرب التقليدية كان له بعض النتائج غير المتوقعة. فبحلول التسعينيات من 1990، تحققت الثورة التقانية التي تنبأ بها ووهلستيتر بشكل رائع، إلى حد بعيد. ومن حرب الخليج الأولى فصاعداً، صار الأمريكيون مطلعين على أشرطة الصور بالفيديو للقنابل الأمريكية، وهي تندفع نحو أهدافها وتفجر مباني مفردة أو عربات مفردة. والقاذفات ب – 52 القديمة التي تسلحت بالذخيرة المشتركة للهجوم المباشر (التي حولت القنابل "العجماء" إلى قنابل مهدفة تهديفاً دقيقاً) صارت العنصر الرئيس في حرب أفغانستان، وكانت القاذفات تستدعى

(*) ذخيرة يلقيها صاروخ باليستي عابر للقارات.

هناك من السماء من جند القوات الخاصة الراكبة على الخيل في صفوف مقاتلي الحلف الشمالي. هذه التطورات، زائداً عليها الثورة الموازية في المعلومات وفي تقانة الاتصالات، جعلت من الممكن تحقيق التحول الضخم في الطريقة التي يمكن أن تدار بها الحرب.

وكذلك، فإن هذا التحول نحو شكل أخف، وأسرع، وأكثر حركة من القتال، والذي عززه تعزيزاً قوياً وزير الدفاع دونالد رمسفيلد بوصفه "التحول" العسكري، جعل التدخل الأمريكي أيضاً أكثر ترجيحاً. لقد خلق إحساساً بأن الحرب ستكون منخفضة التكلفة من وجهة نظر الخسائر الأمريكية. فحرب الخليج عام 1991 أنتج وفيات قتال أقل من مائتي وفاة، والتدخلات الصغيرة العديدة التي تدخلتها إدارة كلينتون في أماكن مثل هاييتي والبوسنة بلغت ذروتها في حرب كوسوفو في عام 1999، ولم يمت فيها جندي أمريكي واحد. وكان رمسفيلد على ما يبدو يريد أن يغزو العراق بأصغر هيكل ممكن للقوة ليبين عملياً إمكانية تنفيذ هذا النوع الجديد من الحرب.

من الأفضل، طبعاً، للولايات المتحدة ألاّ يموت إلاّ عدد قليل من الأمريكيين في الحرب. ومن ناحية أخرى، فإن نجاح التقانة العسكرية الأمريكية في أثناء التسعينيات من 1990 خلق الوهم بأن التدخل العسكري سيكون دائماً نظيفاً أو رخيصاً مثل حروب الخليج أو كوسوفو. وقد أبانت حرب العراق عملياً حدود هذا الشكل الخفيف، الحركي من الحرب: إنها تستطيع أن تهزم عملياً أي قوة عسكرية تقليدية موجودة، ولكنها لا توفر أي ميزات خاصة

في قتال التمرد الطويل الأمد. إن الذخيرة المشتركة للهجوم المباشر والصواريخ المضادة للدروع الموجهة بالتلفاز لا تستطيع أن تميز بين المتمردين وبين غير المقاتلين أو أن تساعد الجنود على التحدث بالعربية. وفي الحقيقة، فإن النموذج نفسه المشكل من القوة العسكرية المحترفة والمتطوعة كلها، والتي تأسست في أيام فيتنام المنحسرة لا تعمل إلا لحروب قصيرة، وعالية الشدة فقط. ولو كانت الولايات المتحدة جادة بشأن تغيير نظام الحكم واستخدام قوتها العسكرية لترويج الغايات السياسية في بلدان حول العالم، فسوف تحتاج إلى قوة عسكرية مختلفة في العديد من الطرق عن القوة العسكرية التي تخيلها ألبرت ووهولستيتر.

الاندماج الكبير

انتهى الآباء المؤسسون لحركة المحافظين الجدد وهم كريستول، وبل، وبليزر، إلى الوصول إلى أماكن مختلفة من الناحية السياسية. ففي الوقت الذي تبنى فيه كريستول ثورة ريغان وصار جمهورياً، كان بل وبليزر أكثر ميلاً إلى الوسط وأقل حزبية. وبقي دانيل باتريك موينيهان ديمقراطياً وصوت، بوصفه عضو مجلس الشيوخ عن نيويورك، ضد مشروع قانون إصلاح الرفاه في عام 1996.

ومع الإقرار بأن أصول الحركة كانت في الجناح اليساري المعادي للشيوعية، فليس مثيراً للدهشة أن المحافظين الجدد كانوا سينتهون على وجه العموم إلى الوصول إلى معارضة السياسة

الخارجية الواقعية التي انتهجها هنري كيسنغر في أثناء السبعينيات من 1970. والواقعية، كما هي محددة في نظرية العلاقات الدولية، تبدأ بفرضية أن كل الأمم، بغض النظر عن نظام الحكم، تكافح من أجل القوة. وتستطيع الواقعية أن تصير في بعض الأوقات نسبية ولاأدرية بشأن أنظمة الحكم، والواقعيون على وجه العموم لا يعتقدون أن الديمقراطية الليبرالية هي من حيث الإمكانية شكل عام عالمي من الحكومة، أو أن القيم الإنسانية الساندة لها هي بالضرورة أعلى منزلة من القيم الإنسانية الساندة للمجتمعات غير الديمقراطية. وفي الحقيقة، هم يميلون إلى التحذير ضد القيام بحملة صليبية من أجل المثالية الديمقراطية، التي تستطيع برأيهم أن تصير مخلة بالاستقرار على نحو خطير.

كان هنري كيسنغر واقعياً تقليدياً، وهو موقف تمسك به باستمرار بدءاً من رسالته للدكتوراه التي كتبها عن مترنيخ إلى عمله العظيم عن الدبلوماسية.[18] ومحاولة كيسنغر، بوصفه مستشاراً للأمن القومي ومن بعد ذلك وزيراً للخارجية، أن يسعى إلى الانفراج في العلاقات الدولية مع الاتحاد السوفييتي السابق، عكست رأيه في أن الاتحاد السوفييتي كان ثابتاً من الثوابت في الشؤون العالمية. وكان على الولايات المتحدة وعلى الديمقراطيات الأخرى أن تتعلم أن تلائم نفسها، وفقاً لكيسنغر، مع قوته. وهكذا فليس من المثير للدهشة أن معظم المحافظين الجدد كانوا بشكل عام مساندين لجهود رونالد ريغان في إعادة التفكير بالأحكام الأخلاقية عن الصراع بين شيوعية السوفييت وبين الديمقراطية

الليبرالية، ولم يجفل من الحرج حين تحدث عن الاتحاد السوفييتي بوصفه "إمبراطورية الشر."

ومن جهة أخرى، ومن أواخر السبعينيات من 1970 وما بعدها، صار من الصعب بشكل متزايد تمييز المحافظة الجديدة عن التنوعات الأخرى من المحافظة الأمريكية التي هي أكثر تقليدية، سواء أكانت مستندة إلى الحكومة الصغيرة لمذهب حرية الإرادة، أو إلى الدين، أو إلى المحافظة الاجتماعية، أو إلى القومية الأمريكية. لا بل إن تحديد المؤهلين ليوصفوا بأنهم من المحافظين الجدد صار أمراً صعباً. وكان هذا صحيحاً لسببين: الأول، هو أن العديد من أفكار المحافظين الجدد قد تم تبنيها من صميم القلب من المحافظين في مجرى الفكر العام، وفي الحقيقة، تم تبنيها من جمهور أمريكي عريض. وربما يكون رونالد ريغان قد قدم حكايات عن "ملكات الرفاه"، ولكن الحوار عن الرفاه صار أكثر جدية بكثير حين تم دعم الصلة بين البرامج الاجتماعية، مثل برنامج العون للعائلات التي تعول أطفالاً، وبرنامج الاعتماد على إعانة الرفاه، من علماء العلوم الاجتماعية التجريبيين على صفحات مطبوعة المصلحة العامة (ببلك إنترست). وفي السياسة الخارجية، وجد المعاندون من محاربي الحرب الباردة من أمثال بول نيتز أنفسهم مصطفين مع المحافظين الجدد في معارضتهم لتسوية كيسنغر مع الاتحاد السوفييتي.

ولكن السبب الثاني لهذا التقارب هو أن العديد من المحافظين الجدد بدؤوا بتبني مواقف المحافظين التقليديين في السياسة

المحلية. ومن المأمون أن نقول إنه لم تكن هناك أي علاقة طبيعية بين الآراء الأصلية لجماعة كلية المدينة في نيويورك/ببلك إنترست، ومعظمهم انطلقوا في رحلتهم، برغم كل شيء، بوصفهم اشتراكيين، وبين محافظة السوق التي نادى بها رونالد ريغان.[19] ومع ذلك فمع حلول الثمانينيات من 1980 كان معظم المحافظين الجدد قد أقاموا سلامهم مع الرأسمالية الأمريكية: وهم لم يكونوا مؤمنين حقيقيين مثل أتباع لودفيغ فون مايسيس أو فريدريك هايك، ولكنهم لم يضعوا أبداً نقداً للسوق الرأسمالية على رأس جدول أعمالهم. ومع حلول التسعينيات من 1990، كان هذا التلاقي سيمتد إلى مجال الثقافة والدين. ومع ذلك، بقي المحافظون الجدد متميزين عن المحافظين الجاكسونيين من أمثال باتريك بوكانان في قضايا مثل الهجرة والتجارة الحرة، (وكلتا القضيتين ساندها المحافظون الجدد إلى حد بعيد).[20]

تشابك المحافظة الجديدة مع خيوط أخرى من المحافظة الأمريكية جعل من الصعب تحديد مواقف المحافظين الجدد تحديداً دقيقاً. ويبالغ الأعداء المعاصرون للمحافظة الجديدة مبالغة كبيرة في القول باتساق الآراء التي وجدت في صفوف المجموعة التي عرّفت نفسها بأنها المحافظون الجدد منذ الثمانينيات من 1980. وقد صار فقدانهم للاتساق سائداً بشكل خاص بعد الموت غير المتوقع للشيوعية في 1989–91، حين تبخرت الوحدة حول السياسة الخارجية وحين بدأ المحافظون الجدد بين أنفسهم بمناقشة طبيعة المصالح الأمريكية القومية في عالم ما بعد الحرب الباردة.

وقد جادلتُ في ما تقدم في أن الإيمان بأهمية طبيعة نظام الحكم والعداء للنسبية المضمرة في الواقعية هو ما وحد معظم المحافظين الجدد. وأما في مطالع التسعينيات من 1990 فلم يكن هناك اتفاق بين المحافظين الجدد على المدى الذي يجب فيه لترويج الديمقراطية أو حقوق الإنسان، أن يكون هو الأساس الذي ترتكز عليه السياسة الخارجية الأمريكية، أو على الدرجة المناسبة للمشاركة الأمريكية حول العالم. ومحرر مجلة المصلحة القومية (ناشيونال إنترست) أوين هاريس، الذي نشر لعديد من المؤلفين من المحافظين الجدد، كان هو نفسه واقعياً كما يقول عن نفسه (وكان مواطناً أسترالياً) جادل في سبيل فهم أضيق للمصالح الأمريكية. وقد بدأ إرفنغ كريستول يناقش في الثمانينيات من 1980 أن على الولايات المتحدة أن تنظر في فك الارتباط مع أوروبا، وكان تأسيسه لمجلة بعنوان المصلحة القومية يوحي بوجهة نظر أكثر تقييداً عن الكيفية التي يجب على أمريكا أن ترى بها نفسها في العالم. وكان هناك حوار نشيط في أوساط الذين ادعوا لأنفسهم بأنهم محافظون جدد في معظم القضايا الكبيرة في السياسة الخارجية التي ظهرت في أثناء التسعينيات من 1990، مثل علاقات الولايات المتحدة مع الصين، وتوسع حلف الأطلسي، وهل تتدخل في البلقان.

كريستول، وكاغان، والتسعينيات من 1990

الموقف التوسعي، الداعي إلى التدخل، المروج للديمقراطية والذي بلغ مبلغ أن يُرى اليوم بوصفه جوهر المحافظة الجديدة، وما دعاه ماكس بوت "الويلسونية القاسية"[21] وسماه الآخرون "الويلسونية على الستيرويدات"(*)، هو موقف أنتجه الكتاب الذين هم أحدث سناً بكثير من غيرهم، مثل وليام ابن إرفنغ كريستول ومثل روبرت كاغان، اللذين بدأا يحاجان من أجل هذا النوع من السياسة الخارجية على صفحات مجلة وليام كريستول ويكلي ستاندرد من أواسط وإلى أواخر التسعينيات من 1990 . وكان جهد كريستول – كاغان المبذول لإعادة تحديد المحافظة الجديدة في هذا الأسلوب جهداً ناجحاً نجاحاً هائلاً من حيث أن معظم الناس حول العالم الآن يتصورونها على هذه الطريقة، ومثل هؤلاء الناس لن يقتنعوا بتغيير آرائهم بغض النظر عن الحقائق المتصلة بالآراء المختلفة للمحافظين الجدد الحقيقيين.

وعُرض جهد كريستول-كاغان لتنقية السياسة الخارجية للمحافظين الجدد لأول مرة عرضاً منهجياً في مقالة كتباها في عام 1996 لمجلة فورين أفيرز (ثم وسِّعت المقالة لتكون كتاباً بعنوان الأخطار الحاضرة "2000") يحددان فيها جدول أعمال "الريغانية الجديدة" للحزب الجمهوري. واختلفا مع خلاصة دعوى جين كيركباترك من أجل العودة إلى الأحوال الأمريكية "العادية" بعد

(*) مركب كيماوي من الشحمانيات الشبيهة بالكوليسترول .ولها علاقة بالهرمونات والفيتامينات، ويستخدم بعضها عند الرياضيين في بناء الأجسام.

نهاية الحرب الباردة، ودعيا بدلاً من ذلك إلى "الهيمنة الخيِّرة" تحت القيادة الأمريكية، وهي سياسة اقتضت "مقاومةً، وحيثما أمكن تقويضاً، للمستبدين الناشئين وللإيديولوجيات المعادية،... مساندة للمصالح الأمريكية ولمبادئ الديمقراطية الليبرالية، و... توفيراً للمساعدة لأولئك الذين يكافحون ضد التجليات التي هي أشد تطرفاً من الشر الإنساني".[22]

هذه السياسة الخارجية للريغانية الجديدة كانت قد وصفت في الغالب بأنها ويلسونية، ولكنها كانت ويلسونية ناقصة مؤسسات دولية.[23] أي أن وودرو ويلسون كان قد سعى إلى تأسيس سلام ديمقراطي، وإلى ترويج إنتشار الديمقراطية الليبرالية من خلال خلق نظام قانوني ليبرالي دولي مستند إلى عصبة الأمم. واستمر هذا التقليد من الليبرالية الدولية بوصفه مكوناً قوياً للسياسة الخارجية الأمريكية عبر جهود إدارتي روزفلت وترومان لتأسيس الأمم المتحدة، ولكنه كان غائباً غياباً كاملاً عن جداول أعمال المحافظين الجدد سواء منها أقدم الجداول أو أحدثها. وفي مكان المؤسسات الدولية شدد كريستول وكاغان على ثلاث أدوات من أجل إبراز النفوذ الأمريكي: التفوق العسكري الكاسح، والتكريس المجدد لأحلاف أمريكا، والدفاع الصاروخي بوصفه وسيلة لحماية أرض الوطن الأمريكية من الهجوم المضاد.[24]

وقد جادل كريستول وكاغان بوضوح من أجل تغيير نظام الحكم بوصفه عنصراً مركزياً في سياستهم الريغانية الجديدة. وشددا على أن حمل أنظمة الحكم المستبدة على أن تلعب وفقاً

لقواعد متحضرة من خلال الاتفاقات، أو القانون الدولي، أو الأعراف هو في نهاية المطاف أمر غير قابل للعمل، وفي المدى الطويل فإن نشر الديمقراطية فقط هو الذي يستطيع أن يضمن الامتثال وتقارب المصالح. وقالا إنه كان من الخطأ بالنسبة إلى الولايات المتحدة ألا تكون قد ذهبت إلى بغداد في أثناء حرب الخليج عام 1991 لإزالة صدام حسين، في حين كان على قوات حلف الأطلسي أن تتحرك إلى ما بعد كوسوفو لتطيح ميلاسوفتش في صربيا. ودعيا إلى تغيير نظام الحكم لا في حالة الدول "المارقة" فقط، مثل العراق، وكوريا الشمالية، وإيران، بل في حالة الصين أيضاً التي شكلت في المدة السابقة لتاريخ 11 أيلول/سبتمبر خصمهم المركزي في النظام الدولي.

وكان جدول أعمال كريستول?كاغان مدفوعاً باعتقاد أن هذا النوع من السياسة الخارجية القائمة على مذهب الفعالية هو لمصلحة الولايات المتحدة. ولكنه كان مدفوعاً أيضاً بحساب سياسي أقل وضوحاً. ففي أثناء سنوات كلينتون، حين لم تكن الولايات المتحدة على ما يبدو تواجه أي تهديدات خارجية خطيرة، بدأ ديفيد بروك، وكان آنئذ محرراً في ويكلي ستاندرد، في الدعوة إلى متابعة سياسة "العظمة القومية" متخذاً من إدارة تيودور روزفلت نموذجاً له.[25] وكان ينظر إلى العظمة القومية بوصفها ترياقاً لمذهب حرية الإرادة المنادي بحكومة صغيرة أو المعادي للحكومة في واحد من الأجنحة المهمة من الحزب الجمهوري، وهو الجناح الذي سبق له أن كان انعزالياً حتى الحرب العالمية الثانية وخلالها، والذي قد

يتحول ثانية في ذلك الاتجاه. وربما كان ينظر إلى هذا بوصفه جزءاً من اتجاه أعرض في صفوف الأمريكيين، كان أول من لاحظه أليكسيس دو توكفيل، للتحول بعيداً عن القضايا العامة باتجاه الانهماك المحدود ضيق الأفق بدائرة صغيرة من الأسرة والأصدقاء.

والعظمة القومية تكشف عن نفسها بصورة لامناص منها من خلال السياسة الخارجية، وذلك نظراً إلى أن السياسة الخارجية هي دائماً مسألة عامة وتشمل على قضايا حياة وموت. وإضافة إلى ذلك، فقد لاحظ كريستول في مناسبات عديدة أن الحزب الجمهوري كان يعمل دائماً، حين تكون قضايا السياسة الخارجية في خطر، على نحو أفضل من عمله حين يكون التركيز موجهاً إلى السياسة الداخلية أو إلى الاقتصاد. ولذلك فقد صمموا سياسة خارجية تتركز حول رأي نظري مجرد جداً في السياسة المحلية – وهو أن أمريكا كانت تحتاج إلى مشروع قومي كي يصرف ذهنها بعيداً عن قضايا مثل ازدهار سوق الأسهم والسندات ومونيكا لوينسكي– بدلاً من اشتقاق السياسة الخارجية واستمدادها من طبيعة العالم الخارجي.

وأدى جدول أعمال كريستول–كاغان إلى وضعهما في خلاف مع فئات مهمة داخل الحزب الجمهوري في أثناء أواخر التسعينيات من 1990. إن ويلسونيتهم "القاسية" تلاقت بدلاً من ذلك مع العديد من سياسات إدارة كلينتون: لقد ساندا التدخل الإنساني في البلقان وفي أفريقيا، وحاجّا من أجل مستوى من مذهب الفعالية الدولية

التي كـانت لعنة بالنسـبـة إلى كل من جناحي الحـزب، الجناح الكيسنغري الواقعي والجناح القومي الجاكسوني على حد سواء. ووضَعَهما جدولُ أعمالهما أيضاً في نزاع مع المحافظين الجدد العديدين الآخرين الذين ادعوا لأنفسهم تلك الصفة مثل جين كيركباتريك وتشارلز كروثامّر، والذين كان لهم في ذلك الوقت آراء عن المصالح القومية الأمريكية أكثر تقييداً بكثير لهذه المصالح.

وكان أحد الملامح في كتابات المحافظين الجدد في أثناء التسعينيات من 1990 هو فقدانها العام للاهتمام بالاقتصاديات الدولية أو بالتنمية. وكان كثير من الطلب الحديث على المؤسسات الدولية الجديدة مدفوعاً بالاحتياجات التي تتطلبها التجارة الكونية والاستثمار، وهي التي أدت إلى تشكيل هيئات مثل الاتفاقية العامة للتعرفات والتجارة، ومنظمة التجارة العالمية، والمنظمة العالمية للملكية الفكرية، وأمثالها. لقد كان المحافظون الجدد على وجه العموم مهتمين بالسياسات، وبالأمن، وبالإيديولوجية، وولدوا القليل نسبياً من الآراء المتميزة حول العولمة، والتنافسية، والتنمية، والقضايا الأخرى. ومالت المقالات التي كُتبت في مجلات المحافظين الجدد عن الموضوعات الاقتصادية إلى أن تكون مكتوبة بأقلام الاقتصاديين المحترفين الذين فُوِّضوا بكتابتها. وعلى الرغم من بعض النقد النظري المبكر للرأسمالية الحديثة، فإن وصفات السياسة الاقتصادية كانت تميل طول الوقت بشكل متزايد إلى السير على أثر عقيدة الاقتصاد الأمريكي المعاصر الكلاسيكي الجديد.[26]

ونظراً إلى أن جدول أعمال كريستول-كاغان قد صار مرتبطاً ارتباطاً لا يُمحى مع المحافظة الجديدة، وكان قد وضع موضع الممارسة على يد إدارة جورج دبليو. بوش، فإنه لصراع شاق أن نحاول إعادة تعريف السياسة الخارجية للمحافظة الجديدة بعد وقوع حقيقة الأمر. ولكن يجب أن يكون واضحاً أن تراث المحافظين الجدد كان تراثاً معقداً وكان له خيوط متعددة، وأن المضامين المحدَّدة للسياسة المتصلة بالكيفية التي يتم التعامل بها مع الصين، أو العراق، أو الأوروبيين والتي يستطيع المرء أن يستنتجها من المبادئ الساندة لم تكن بالضرورة هي تلك المضامين التي اختارها كريستول وكاغان.

هل كان رونالد ريغان من المحافظين الجدد؟

وهل جورج دبليو. بوش منهم؟

إن تشابك المحافظين الجدد مع الحركة المحافظة لمجرى التفكير السائد في أمريكا من الثمانينيات من 1980 فصاعداً يثير بعض الأسئلة الممتعة عمن هو المؤهل ليكون من المحافظين الجدد. لقد ادعى كريستول وكاغان ادعاء واضحاً ملكية عباءة الريغانية وسعيا إلى أن يشتقا سياستهما الخارجية من سياسته. فإلى أي مدى تعتبر سياسة جورج دبليو. بوش ببساطة استمراراً لتقليد الريغانية؟ وإلى أي مدى تؤهل هذه السياسة الرئيس بوش ليوصف بأنه من المحافظين الجدد؟

على مستوى من المستويات، يبدو غريباً نوعاً ما أن يُدعى ريغان أو بوش محافظاً جديداً. فالمحافظون الجدد كانوا في أصلهم (معظمهم) مفكرين يهوداً ممن أحبوا أن يقرؤوا، وأن يكتبوا، وأن يناقشوا، وأن يحاوروا، وبمعنى من المعاني، كان تألقهم الفكري، وقدرتهم على التأمل، والاختلاف الدقيق والمرونة المرتبطة بالحوار الفكري هي الصفات التي كانت أبرز ما تكون فيهم، وهي التي ميزتهم بشكل ملحوظ من المحافظين القدامى.

ومن بين الرئيسين موضوع البحث، فإن رونالد ريغان هو في رأيي الرئيس الذي يستأهل بوضوح أكبر أن يوصف بأنه محافظ جديد. ومع أن كثرة من أعداء رونالد ريغان ينفرون من الاعتراف بذلك، فإن رونالد ريغان كان مثقفاً من نوع ما مختلف: وفي العقد الأول من مسيرة حياته أو ما يقارب العقد، كان كل ما لديه ليقدمه أفكاراً ومناقشات حول الشيوعية والسوق الحرة، وحول القيم الأمريكية، وحول نقائص العقيدة الليبرالية الحاكمة. وحمل ريغان كذلك تشابهاً مع جماعة كلية المدينة من حيث مجيئه إلى معاداة الشيوعية من اليسار: لقد انطلق يعمل ديمقراطياً ومعجباً بفرانكلين روزفلت، وكان قائداً عمالياً بوصفه رئيساً لنقابة ممثلي الشاشة السينمائية. ويبدو أن استبصاره حول طبيعة الشيوعية كان قد ظهر نتيجة لصراعاته مع الشيوعيين أو مع المتعاطفين مع الشيوعيين في هوليوود. وكانت سياسته الخارجية متميزة بوضوح عن سياسة جيمي كارتر أو عن سياسة فريق نيكسون –فورد– كيسنغر. لقد اعتقد ريغان اعتقاداً جازماً أن الطبيعة الداخلية

لأنظمة الحكم تحدد سلوكها الخارجي وكان ريغان في البداية غير راغب في مهاودة الحل الوسط مع الاتحاد السوفيتي وذلك لأنه رأى بوضوح أكبر من رؤية الأكثرية تناقضات الاتحاد السوفيتي، ونواحي ضعفه.[27]

وبشأن السؤال هل يعتبر جورج دبليو. بوش محافظاً جديداً؟ أو هل سبق له أن كان واحداً منهم؟ يبدو لي أنه قد صار واحداً منهم مع بداية المدة الثانية لولايته. فهو عندما كان مرشحاً، تحدث حديثاً قليلاً نسبياً عن جدول أعمال ويلسوني في السياسة الخارجية، وجادل جدالاً مشهوراً في عام 2000، وقال: "لا أعتقد أن قواتنا يجب أن تستخدم من أجل ما يسمى بناء الأمة. أعتقد أن قواتنا يجب أن تستخدم لتقاتل ولتكسب الحرب". وقد اشتكت كوندوليزا رايس المؤتمنة على أسرار سياسته الخارجية ومستشارته المستقبلية للأمن القومي ووزيرة خارجيته وقالت: "يجب ألا تستخدم القوات الأمريكية لمرافقة أطفال المدارس" في البلقان، وطالبت بإلحاح بإعادة القوات إلى الوطن. والتبريرات الأولى التي قُدمت من أجل الحرب في العراق لم تكن مصوغة بتعابير ويلسونية بشكل رئيسي، بل بتعابير التهديد من أسلحة الدمار الشامل العراقية ومن صلة العراق بالإرهاب. وعالج الرئيس جورج بوش على نحو منهجي جدول الأعمال الأوسع للتحول السياسي في الشهر السابق مباشرة للحرب فقط، حين قدم رسمياً فكرة التحويل الديمقراطي للعراق هدفاً للحرب، إضافة إلى المشروع الأوسع لتحويل الشرق الأوسط سياسياً.[28]

ومع حلول وقت تنصيبه الثاني، توصل بوش إلى قبول الكثير من جدول أعمال المحافظين الجدد بوصفها على الأقل الإطار البلاغي لفترة ولايته الجديدة. لم يقل شيئاً عن الإرهاب، ولم يقل إلا القليل عن الأمن، وتحدث بدلاً عن ذلك عن عالمية القيم الديمقراطية، وقال: ("وفي نهاية المطاف فإن نداء الحرية يصل إلى كل عقل وإلى كل روح"). وربط نظام الحكم الداخلي مع السلوك الخارجي (ترويج الديمقراطية هو "المطلب الملح لأمن أمتنا") ولاحظ أن "بقاء الحرية في أرضنا يعتمد اعتماداً متزايداً على نجاح الحرية في أراض أخرى".

ولاحظ كثيرون من المعلقين أن بوش وصل إلى وضع واجهة جدول الأعمال الويلسوني ومركزه في الأغلب، لأن السبب المنطقي الأمني اللازم لتحديد فعل إدارته – وهو حرب العراق – قد اختفى. ذلك ما قد يكون صحيحاً، ولكن حين تكون السياسة في الموقع المناسب لا يهم آنئذ كيف وصل الرئيس إلى هناك. وكذلك فإن هناك قليلاً من الشك في أن بوش يؤمن بما يقوله حول أهمية جدول أعمال ترويج الديمقراطية، بوصفه مسألة مبدأ على الأقل. والمشكلة بالنسبة إلى الفترة الثانية لولاية بوش هي أن السياسات التي تم الاضطلاع بها في الفترة الأولى لولايته ولّدت الكثير جداً من العداوة لإدارته إلى الدرجة التي تمكن فيها من إضعاف الثقة بجدول أعمال ترويج الديمقراطية الرائع على نحو كامل، حتى حين كان هو نفسه يتوصل إلى هذا الجدول. وجهوده بعد وقوع الحدث فعلاً التي سعى فيها إلى تبرير الحرب الوقائية في تعابير مثالية

قادت كثيرين من النقاد إلى أن يرغبوا ببساطة في نقيض أي شيء يريده.

كشف الحساب

والآن، وقد صارت كلمة المحافظين الجدد نفسها تعبيراً عن القدح، فإننا نحتاج إلى النظر في تراث المحافظين الجدد، لا في السنوات الخمس الماضية، بل في السنوات الخمسين الماضية.

وكما لاحظنا في ما تقدم، هناك قدر كبير من التنوع في الآراء التي تمسك بها المحافظون الجدد الذين ادعوا لأنفسهم هذه الصفة طوال ربع القرن الماضي، ولا شيء فيها يقترب من أن يكون خطاً لحزب. ومع ذلك، فإن من الممكن أن نستخرج أربعة مبادئ أساسية أو أربعة موضوعات يتصف بها فكر المحافظين الجدد الذي يشرح شرحاً منطقياً المواقف السياسية التي اتخذوها والتي تميز المحافظين الجدد عن مدارس الفكر الأخرى في ميدان السياسة الخارجية. وهذه المبادئ هي:

● إيمان بأن طبيعة الشخصية الداخلية لأنظمة الحكم تُهِمُّ، ويجب على السياسية الخارجية أن تعكس أعمق قيم المجتمعات الليبرالية الديمقراطية. والرأي القائل إن طبيعة نظام الحكم مهمة للسلوك الخارجي هو رأي تمسك به المحافظون الجدد تمسكاً أكثر ثباتاً بكثير من الرأي الواقعي البديل، الذي يرى أن كل الدول تسعى إلى القوة بغض النظر عن نوع نظام الحكم. وقد رأى المحافظون

الجدد الأوائل المعادون للستالينية الحرب الباردة بوصفها صراعاً على الإيديولوجية وعلى القيم، وهو قتال استمر إلى سنوات ريغان حول الكيفية التي يتم التعامل فيها مع الاتحاد السوفيتي. والتيار الإشتراوسي في المحافظة الجديدة رأى أيضاً نظام الحكم بوصفه مبدأ مركزياً منظماً للسياسة.

● إيمان بأن قوة أمريكا قد استخدمت، ويمكن أن تستخدم، من أجل أغراض أخلاقية، وأن الولايات المتحدة تحتاج إلى أن تبقى منغمسة في الشؤون الدولية. وهناك بُعدٌ واقعي للسياسة الخارجية لدى المحافظين الجدد، وهو بعدٌ يقع في فهم أنّ القوة ضرورية في الغالب لتحقيق الأغراض الأخلاقية. وعلى الولايات المتحدة، بوصفها القوة العالمية المهيمنة، مسؤوليات خاصة في مجال الأمن. وكان هذا صحيحاً في البلقان في التسعينيات من 1990، مثلما كان صحيحاً في الحرب العالمية الثانية وفي القتال ضد هتلر.

● عدم الثقة في مشاريع الهندسة الاجتماعية الطموحة. والنتائج المشؤومة لجهود التخطيط الاجتماعي الطموحة هي موضوع ثابت في فكر المحافظين الجدد الذي يربط نقد الستالينية في الأربعينيات من 1940 مع ارتياب مجلة ببلك إنترست بشأن المجتمع العظيم في الستينيات من 1960.

● وأخيراً، ارتياب في مشروعية القانون الدولي وفي فاعليته وفي مشروعية مؤسساته وفي فاعليتها في تحقيق الأمن أو العدالة. وفي حين دُعِي المحافظون الجدد بالويلسونيين، فإن وودرو

ويلسون نفسه كان قد سعى إلى ترويج الديمقراطية من خلال إنشاء عصبة الأمم. والحلم في أن يتم تجاوز سياسة القوة واستبدال القانون الدولي بها هو حلم يشارك فيه اليوم الدوليون الليبراليون الأمريكيون والكثيرون من الأوروبيين. ويتفق المحافظون الجدد في هذا الخصوص مع الواقعيين في أن القانون الدولي أضعف من أن ينفذ القواعد ويضبط العدوان، وهم ينتقدون الأمم المتحدة انتقاداً شديداً سواء أكانت وسيطاً، أو منفذاً للعدالة الدولية. وعدم الثقة في الأمم المتحدة لا يمتد، بالنسبة إلى معظم المحافظين الجدد، إلى جميع أشكال التعاون المتعدد الأطراف، فمعظم المحافظين الجدد، على سبيل المثال، ميالون ميلاً مؤيداً لحلف الأطلسي، ويؤمنون بالعمل الجماعي المشترك المستند إلى المبادئ الديمقراطية المشتركة.[29]

في القضية المركزية التي حدّدت المحافظين الجدد، وهي الصراع الكوني ضد الشيوعية، كان المحافظون الجدد أكثر صواباً من خصومهم في تحليلهم الأساسي لطبيعة المشكلة ولحلولها، وفي الحقيقة، كان المحافظون الجدد على صواب أكثر مما أدركه كثيرون من المحافظين الجدد أنفسهم. وفي الأيام الأولى من الحرب الباردة، اعتقد طيف عريض من الأمريكيين، من جون اف. كيندي وهيوبرت همفري إلى بول نيتز وجورج كينان، أن الشمولية الشيوعية مثلت نوعاً فريداً من الشر. وعلى الرغم من أن مقاتلي الحرب الباردة الأوائل لم يستخدموا لفظ "تغيير نظام الحكم" فإن العديدين منهم افترضوا أن التحدي السوفيتي نشأ من طبيعة نظام الحكم، ولن ينتهي حتى يتم تبديل النظام نفسه.

وعلى كل حال، فقد ظهر بعد فيتنام رأي مختلف جداً. وهو الرأي الذي انعكس في كلمات الرئيس جيمي كارتر، الذي كان يعتقد أن الغرب كان يعيش في "خوف مفرط من الشيوعية". وكان يشترك في هذا الموقف الأخير أناس في اليسار كان لديهم بعض التعاطف مع الأهداف الاجتماعية للشيوعية، وكانوا يختلفون على الوسائل فقط، ويشترك فيه واقعيون في اليمين كانوا يقبلون الشيوعية بوصفها شكلاً آخر من أشكال الحكومة التي كان يتعين على الديمقراطيات الغربية أن تلائم نفسها معها. أما المحافظون الجدد بعد فيتنام فقد استمروا ببساطة يحملون مشعل رأي الحرب الباردة الأسبق حول الشيوعية بوصفها شراً فريداً.

وقد سخر المحنكون من الناس في اليسار الأمريكي وفي أوروبة من رونالد ريغان لأنه دعا الاتحاد السوفيتي وحلفاءه باسم "إمبراطورية الشر" ولأنه تحدى ميخائيل غورباتشوف لا أن يصلح نظامه وحسب بل أن "يهدم هذا الجدار" كذلك. وكان مساعد وزير الدفاع لسياسة الأمن الدولي، في إدارة ريغان، وهو ريتشارد بيرل يُدان بوصفه "أمير الظلام" من أجل هذا الموقف غير المهاود والمتصلب، وقد هوجِم اقتراحه من أجل الصفر المضاعف في مفاوضات القوات النووية المتوسطة المدى (وهو يعني: الإزالة الكاملة للصواريخ المتوسطة المدى) هوجم بوصفه اقتراحاً معزولاً عن الصورة وبعيداً بعداً ميئوساً منه، وكان الذين هاجموه هم أفضل عقول خبراء السياسة الخارجية المعتدلين الوسطيين من الموجودين في أماكن مثل مجلس العلاقات الخارجية، ووزارة

الخارجية. لقد شعر ذلك المجتمع أن الريغانيين كانوا طوباويين على نحو خطر في آمالهم في كسب الحرب الباردة فعلاً، مقارنة بإدارة الحرب الباردة.[30]

ومع ذلك فإن النصر في الحرب الباردة هو بالضبط ما حدث في 1989-91. ولم يقبل غورباتشوف الصفر المضاعف فقط بل قَبِل تخفيضات عميقة في القوات التقليدية، ثم فشل بعدئذ في وقف ارتداد البولنديين، والهنغاريين، والألمان الشرقيين وخروجهم من الإمبراطورية. لقد انهارت الشيوعية في غضون بضع سنوات بسبب نواحيها الأخلاقية الداخلية الضعيفة وتناقضاتها، ومع تغيير نظام الحكم في أوروبة الشرقية وفي الاتحاد السوفيتي السابق تبخر تهديد حلف وارسو للغرب.[31] ولم يكن لدى الرعايا السابقين لإمبراطورية الشر مثل البولنديين، والتشيك، والإستونيين أي اعتراض على لغة ريغان الأخلاقية، وهم إلى هذا اليوم يستاؤون من رغبة الكثيرين جداً في أوروبة الغربية في التخلي عن قضية تحريرهم من القوة السوفيتية في أثناء الحرب الباردة. والانقسامات الحالية بين أوروبة القديمة والجديدة يمكن تتبع آثارها والرجوع بها مباشرة إلى قضية تغيير نظام الحكم: إن الأوروبيين الجدد كانوا يعرفون أن حالتهم لن تتغير تغيراً أساسياً حتى يستطيعوا أن يعاودوا الالتحاق بالغرب الديمقراطي.

لقد امتدت حدود حلف الأطلسي الآن حتى خليج بوثنيا[*]

(*) امتداد بحر البلطيق بين السويد وفنلندا.

وحتى نهر الأودر(*) ويوحي الجيشان الشعبي في أوكرانيا الذي أتى بفكتور يوششنكو إلى السلطة في عام 2004-5 بأن الموجة الديمقراطية قد لا تكون قد انتهت. إن الانهيار السريع، وغير المتوقع، والسلمي إلى حد بعيد للشيوعية صادق على شرعية مفهوم تغيير النظام مدخلاً للعلاقات الدولية. ومع ذلك فإن هذا الإثبات غير العادي قد وضع الأساس للانعطاف الخاطئ الذي اتخذه كثيرون من المحافظين الجدد في العقد التالي من الزمان وهو الانعطاف الذي كان له عواقب مباشرة لإدارتهم للسياسة الخارجية بعد 11 أيلول/سبتمبر. لقد كانت المشكلة مزدوجة، وهي تحدث على مستوى تفسيرهم لما حدث في عام 1989 وفي علاقتهم النفسية مع خصومهم السياسيين معاً.

لقد كان عام 1989 عاماً مشؤوماً، لقد كانت معجزة سياسية ربما ما كان يستطيع أن يتوقعها أحد حتى رونالد ريغان نفسه الذي ظن أن الشيوعية كانت متجهة نحو "صفيحة زبالة التاريخ". وفعلياً لقد افترض كل دارس للقوة السوفيتية، سواء أكان في اليمين أم في اليسار، أن تغيير النظام لن يأتي إلى أوروبة الشرقية بشكل سلمي ومع الموافقة السوفيتية الظاهرة. لقد افترض كل واحد أن المكاتب السياسية في بولندا وفي ألمانيا الشرقية، وفي موسكو كذلك، كانت منقسمة بين الإصلاحيين وبين المتصلبين، وأن هؤلاء الأخيرين حين يتم تحديهم مجابهة سوف يحفرون لأعقابهم ويتخذون مواقف

(*) نهر في أوروبة الوسطى يجري 904كم من شمال شرق جمهورية التشيك عبر بولندا وألمانيا إلى بحر البلطيق.

حازمة ويقاومون التغيير بالقوة العسكرية. وكون المتصلبين أنفسهم لم يملكوا الرغبة في القتال في مثل هذا الصراع أوحى بفساد أخلاقي في قلب النظام الشيوعي أعمق مما ظن عملياً أي واحد.[32]

يستطيع المرء أن يستجيب برد فعله نحو المعجزة بطريق من طريقين. فهو يستطيع أن يقول: "المعجزات تحدث"، ويرفع تطلعاته رفعاً مؤثراً طمعاً في تكرارها في كل الحالات المماثلة لها. وفي حالة انهيار الشيوعية، ظهر هذا الموقف في تعميم خبرة أوروبة الشرقية على بقية الأجزاء الأخرى من العالم. لقد سعى الأوروبيون الشرقيون سعياً واضحاً إلى التحرر من استبداد شرير، وكان استئصال القوة السوفيتية مثل انفجار سد سمح لنهر أن يعود إلى مجراه الطبيعي. لقد خُدِعنا مرة من أناس قالوا إن الأوروبيين الشرقيين قد تعلموا أن يحبوا عبوديتهم، وبهذا الرأي، يجب علينا ألا نقلل من قيمة النبض الديمقراطي في مكان آخر.

والاستجابة برد الفعل الثاني هي أن يشكر المرء الله تعالى على الحظ غير العادي له، ويضع مكاسبه في جيبه، ويتأمل في الظروف الفريدة التي شهدها قبل قليل. ويستطيع المرء أن يعتقد أن الديمقراطية الليبرالية تُكوِّن موجة المستقبل من دون الاعتقاد أن الطغاة المخيفين سوف ينهارون لا محالة من دون أن تطلق عليهم طلقة واحدة إلاّ نادراً. ونحن نستطيع مع الاستفادة من المعرفة بعد وقوع الحدث والرؤية الطبيعية 20/20، أن نرى أن الشيوعية كانت إيديولوجية فارغة ومصطنعة بشكل فريد ولم تنمُ لها جذور عضوية

في المجتمعات الساندة لها. وعودة الأوروبيين الشرقيين إلى الديمقراطية ترتبط كثيراً بالحقيقة التي مؤدّاها أنهم كانوا في الواقع أوروبيين في مستوى عال من التنمية، وقد تم تعطيل تقدمهم الطبيعي من جراء الأحداث المرعبة في القرن العشرين. ولكن هذا لا يعني ضمناً أن كل الدكتاتوريات تفتقر بشكل مشابه إلى الجذور الاجتماعية أو أنها ستختفي اختفاء سريعاً أو سلمياً مثلما فعلت الشيوعية الأوروبية.

وكثيرون من الناس يفسرون كتابي نهاية التاريخ والإنسان الأخير (1992) من حيث أنه يحاور لصالح التفسير الأول: وهو أن هناك جوعاً شاملاً إلى الحرية في كل الناس، وهو سيقودهم حتماً إلى الديمقراطية الليبرالية، وأننا نعيش في وسط حركة متسارعة، عابرة للأمم لصالح الديمقراطية الليبرالية. وهذا خطأ في قراءة المناقشة.[33] إن نهاية التاريخ هو في النهاية مناقشة حول التحديث. ما هو شامل في البدء ليس الرغبة في الديمقراطية الليبرالية بل هو بالأحرى الرغبة في العيش في مجتمع حديث، مع تقانته، ومستوياته العالية من المعيشة، والرعاية الصحية، والوصول إلى العالم الأوسع. إن التحديث الاقتصادي، حين ينجح، يميل إلى دفع المطالب من أجل الحصول على المشاركة السياسية عن طريق تكوين الطبقة الوسطى التي لها أملاك تحميها، ومن أجل الحصول على مستويات من التعليم أعلى، واهتمام أكبر من أجل الاعتراف بالناس بصفتهم أفراداً. إن الديمقراطية الليبرالية هي واحد من المنتجات الفرعية لعملية التحديث هذه، إنها شيء ما يصير طموحاً

شاملاً في سياق الزمن التاريخي فقط. ولم أطرح قطعياً نسخة قوية من نظرية التحديث، بمراحل صارمة للتنمية أو بنتائج اقتصادية محددة. إن الاحتمالات الطارئة، والقيادة، والأفكار لعبت دائماً دوراً معقِّداً، وهي التي جعلت النكسات الكبيرة ممكنة إن لم تكن مرجحة.

وقد وصف العالم كين جووِيت آرائي والطريقة التي اختلفت فيها عن مدخل إدارة بوش وصفاً صحيحاً:

ابتداء، ولو ضمناً، وافقت إدارة بوش على أطروحة "نهاية التاريخ" وهي أن "بقية" العالم سوف تصير نوعاً ما بشكل طبيعي مثل الغرب عموماً ومثل الولايات المتحدة على وجه الخصوص. إن 11 أيلول/سبتمبر غيَّر ذلك. وعلى أثر عواقبه، استنتجت إدارة بوش أن الجدول الزمني التاريخي لفوكوياما مائل جداً إلى مقولة دعه يعمل وليس متنبهاً تقريباً بما فيه الكفاية لروافع التغيير التاريخي. لقد استنتجت إدارة بوش، أن التاريخ يحتاج إلى التنظيم المدبر، وإلى القيادة، وإلى التوجيه. وفي مفارقة المفارقات الساخرة هذه، فإن تحديد إدارة بوش لتغيير نظام الحكم بوصفه حاسماً في سياستها في مكافحة الإرهاب وجزءاً لا يتجزأ من رغبتها في عالم رأسمالي ديمقراطي قاد إلى سياسة خارجية "لينينية" نشيطة في مكان الغائية الاجتماعية "الماركسية" السلبية لدى فوكوياما.[34]

وأنا لم أحب النسخة الأصلية من اللينينية وكنت مرتاباً حين تحولت إدارة بوش وصارت لينينية. ومن المرجح للديمقراطية في نظري أن تتوسع وتمتد امتداداً شاملاً على المدى الطويل. ولكن هل

يمكن للانتقال السريع والسلمي نسبياً إلى الديمقراطية وإلى الأسواق الحرة الذي صنعه البولنديون، أو الهنغاريون، أو الرومانيون كذلك، أن يتكرر بسرعة في أجزاء أخرى من العالم أو أن يروج من خلال استخدام القوة من الأجانب في أي نقطة معينة في التاريخ؟ إن هذا مفتوح للشك.

وضمن العالم الشيوعي السابق، كان هناك تنوع واسع في نتائج الانتقال، وراوحت بين انتقال سريع إلى الديمقراطية واقتصاد السوق في حالتي بولندا وإستونيا، وبين بقاء الحكومة المطلقة في حالات بيلاروسيا والعديد من دول آسيا الوسطى اللاحقة. إن القادة، والتاريخ، والثقافة، والجغرافية، وعوامل أخرى متنوعة متصلة بالسياق عبر العالم الشيوعي السابق أثرت تأثيراً كبيراً على نجاح التغيير السياسي. وكما ستأتي المناقشة أدناه، فإن الانتقالات الديمقراطية عموماً صعبة التحقيق والإنجاز، وكذلك فإن تعزيز التنمية الاقتصادية مساوٍ لذلك في الصعوبة. وهذا يوحي بأن التحولات المتفجرة من النوع الذي رأيناه في العالم الشيوعي والتي أوصلت الحرب الباردة إلى النهاية ستكون على الأرجح هي الاستثناءات أكثر مما تكون هي القاعدة.

أما المحافظون الجدد مثل كريستول وكاغان ففسروا الأحداث تفسيراً مختلفاً. وقد كتبا في كتاب المخاطر الحاضرة:

بالنسبة إلى الكثيرين تبدو فكرة استخدام أمريكا لقوتها، من أجل ترويج تغييرات أنظمة الحكم في الأمم المحكومة من حكام

مستبدين حكماً مطلقاً، تبدو وكأنها فكرة توحي بالطوباوية. ولكنها في الحقيقة، فكرة واقعية للغاية. وهناك شيء ما غير مواتٍ في التصريح باستحالة ترويج التغيير الديمقراطي في الخارج على ضوء سجل العقود الثلاثة الماضية. وبعد أن رأينا حكاماً مستبدين يطاح بهم بالقوات الديمقراطية في هذه الأماكن غير المتوقعة مثل الفلبين، وإندونيسيا، وتشيلي، ونيكاراغوا، وباراغواي، وتايوان، وكوريا الجنوبية، فإلى أي حد يكون طوباوياً أن نتخيل تغييراً لنظام الحكم في مكان مثل العراق؟ وإلى أي حد يكون طوباوياً أن نعمل من أجل سقوط حكم القلة من الحزب الشيوعي في الصين بعد أن سقطت قلة في الاتحاد السوفيتي كانت أقوى بكثير، وكانت أكثر استقراراً، وهو أمر قابل للنقاش؟ ومع التغيير الديمقراطي وهو يكتسح العالم بمعدل غير مسبوق طوال هذه السنوات الثلاثين الماضية. هل يكون "واقعياً" أن نصرَّ على أنه ليس بالمستطاع كسب المزيد من الانتصارات؟[35]

هذا الإيمان بقرب حدوث التغيير الديمقراطي كان مستنداً إلى شيئين. الأول له علاقة بتفسير الجاذبية الأساسية العابرة للثقافات والتي تحظى بها الديمقراطية وله علاقة بسريان عدوى الفكرة الديمقراطية في نهاية القرن العشرين. والثاني له علاقة بإيمانهم بمركزية القوة الأمريكية، وعلى وجه الخصوص، الرأي بأن سياسات رونالد ريغان كانت حاسمة لابد منها لموت الاتحاد السوفييتي السابق.

من الواضح أن موجة معدية من الحّمى الديمقراطية قد اجتاحت أجزاء عديدة من العالم في أواخر الثمانينيات من

1980 ،ومطالع التسعينيات من 1990، وإلا فكيف نستطيع أن نفسر بغير ذلك سلسلة التحولات الديمقراطية التي حدثت في إفريقية جنوب الصحراء في مطالع التسعينيات من 1990، وهي منطقة لم تفِ بأي شرط من الشروط البنيوية اللازمة للديمقراطية الناجحة؟ ولكن نظرية التغيير الديمقراطي التي تنبثق من عملية عريضة من التحديث مثل العملية التي طرحت في كتاب نهاية التاريخ توحي بأن العدوى الديمقراطية تستطيع أن تأخذ المجتمع إلى هذا الحد فقط، وإذا لم تُستَوفَ شروط بنيوية معينة، فإن عدم الاستقرار والنكسة جاهزة بالانتظار. وهذا يفسر لماذا تراجعت في نهاية الأمر كل الموجات السابقة من نشر الديمقراطية ودخلت إلى النقيض منها؟ ولم يكن هناك أي سبب للتفكير في أن الشيء نفسه لن يحدث في نهاية المطاف لما دعاه صامويل هنتنغتون الموجة الثالثة من نشر الديمقراطية، والتي بدأت في أواسط السبعينيات من 1970. ومع حلول العقد الأول من القرن الحادي والعشرين كان هناك دليل متنام على أن الموجة الثالثة قد بلغت في الحقيقة ذروتها. وفشلت الديمقراطيات الجديدة في أن تتعزز وتقوى في هايتي، وكمبوديا، وبيلاروس. وكانت مولدافيا وأوكرانيا تغرقان في الفساد، وواجهت الديمقراطيات الراسخة نكسات في فنزويلا، وبوليفيا، والإكوادور، والبيرو، في حين ووجهت الإصلاحات الليبرالية في الأرجنتين بأزمة اقتصادية في عام 2001. وكانت روسيا تتحرك بوضوح تحت الرئيس فلاديمير بوتين لنقض العديد من الإصلاحات الليبرالية من عصر يلتسين، في حين أن العديد من

تجارب إفريقية الديمقراطية أثبتت أنها سريعة الزوال (وأسوأ التجارب سمعة تجربة زيمبابوي). وعلى الرغم من أن الانتخابات الديمقراطية كانت قد عقدت في العديد من البلاد مع حلول التسعينيات من 1990، فإن الحكم الليبرالي للقانون ومراعاة حقوق الإنسان تقدمت تقدماً أقل بكثير وعانت في العديد من الحالات انتكاسات خطيرة. وقد جادل توماس كاروثرز، وهو طالب دارس لترويج الديمقراطية، في أن الرأي الذي كان مستصوباً عموماً في التسعينيات من 1990 والقائل إن معظم البلدان في العالم كانت في نقاط مختلفة في عملية "الانتقال إلى الديمقراطية"، كان رأياً خاطئاً، والعديد من الأجزاء من العالم الشيوعي السابق لم تكن تنتقل إلى أي مكان، بل كانت مرتبكة معوقة في منطقة رمادية نصف مطلقة مستبدة.[36]

ليس هناك أي نظرية موجودة تفسر كيف تبدأ الموجات الديمقراطية في بادئ الأمر؟ أو لماذا؟ ومتى تبلغ ذروتها أو تتراجع؟ وتوحي الثورات الديمقراطية التي حدثت في صربيا، وجورجيا، وأوكرانيا في مطلع القرن الحادي والعشرين بأنه ما يزال هناك زخم ضخم متبق في العالم الشيوعي السابق. ولكن في الوقت الذي لا نجد فيه خطأ في أن نكون مفعمين بالأمل ومنفتحين على إمكانية حدوث المعجزات فإن التكهن بسياسة خارجية مبنية على احتمال حدوث تحولات ديمقراطية متعددة في الأجل القريب هو أمر آخر تماماً.

وما يدعوه جوويت الرأي اللينيني، وهو أن من المستطاع تسريع التاريخ من خلال الوسيلة الأمريكية، كان رأياً له جذور راسخة في

تفسير محدد لنهاية الحرب الباردة، أي أنها قد "كُسِبت" بفضل إدارة ريغان من خلال بناء القوات العسكرية الأمريكية. وكان يجب لهذا التفسير، وهو نفسه موضع الشك، أن يكون ذا علاقة محدودة بالحالة في العراق.

وليس هناك أدنى شك في أن معاداة ريغان للشيوعية، وهي المعاداة المستندة إلى المبادئ، قدمت أملاً للناس في أوروبة الشرقية وفي روسيا نفسها في الحقيقة، وهذا هو السبب الذي بقي من أجله ريغان بطلاً في أماكن مثل بولندا. والحقيقة الواقعة أيضاً هي أن بناء الولايات المتحدة العسكري لعب دوراً في إقناع القادة السوفييت بأنهم سيجدون صعوبة في التنافس مع الولايات المتحدة. ولكن حدثاً في ضخامة انهيار الاتحاد السوفيتي السابق كان له أسباب عديدة، بعضها مركوزة عميقاً في طبيعة النظام السوفيتي (وعلى سبيل المثال، عدم شرعية الإيديولوجية الحاكمة)، وبعضها الآخر عرضي وطارئ (موت يوري أندروبوف المبكر وصعود ميخائيل غورباتشوف). إن المحافظين من كل الأنواع يميلون إلى وضع تشديد كبير جداً على البناء العسكري الأمريكي بوصفه السبب لانهيار الاتحاد السوفيتي، في الوقت الذي كانت فيه العوامل السياسية والاقتصادية على الدرجة نفسها من الأهمية على الأقل. لقد جادل العالمان جون إكينبري ودانييل دودني أن "الشَّد" الجذاب من الغرب، ووعي السوفييت بأن الشراكة مع الغرب كانت ممكنة، كانا على الدرجة نفسها من الأهمية على الأقل في تفسير الانهيار السوفيتي.37 وعلى أي حال، ففي المدى الذي كانت فيه السياسية

العسكرية مهمة في تفسير انهيار الاتحاد السوفييتي، فإنها كانت سياسة احتواء وردع أكثر مما كانت صداً له ليتراجع.

وكان هناك أيضاً بعدٌ نفسي للطريقة التي استجاب بها الكثيرون من المحافظين الجدد بردود فعلهم على نهاية الحرب الباردة. ففي الكثير من زمن الحرب الباردة صار المحافظون الجدد معتادين على كونهم أقلية صغيرة، ممقوتة. وعلى الرغم من أن الكثير من أفكارهم كان قد وضع أخيراً موضع الممارسة العملية في إدارة ريغان، فقد بقيت الحقيقة الواقعة، وهي أن مؤسسة السياسة الخارجية، أي الناس الذين يديرون البيروقراطيات في وزارة الخارجية، وفي مجتمع الاستخبارات، وفي وزارة الدفاع، بالإضافة إلى فيالق المستشارين، والاختصاصيين في مراكز البحث والتفكير، والأكاديميين، كانت إلى حد كبير مؤسسة رافضة لهم. وكان المحافظون الجدد أيضاً معتادين على أن الأوروبيين كانوا ينظرون إليهم بعين الازدراء بوصفهم متزمتين سذجاً أخلاقياً، أو بوصفهم رعاة بقر متهورين، أو بوصفهم أسوأ من ذلك. وكانوا معتادين على معارضة الحكمة التقليدية وعلى البحث عن الحلول، مثل الصفر المضاعف أو هدم جدار برلين، وهي حلول كان يظن كل شخص غيرهم أنها خارج مجال الإمكانية بشكل كامل.

وقد أثبت انهيار الشيوعية المفاجئ قيمة العديد من هذه الأفكار وجعلها تبدو من أفكار المجرى الفكري العام وواضحة بعد عام 1989. وهذا ما عمل عملاً كبيراً بشكل طبيعي لدعم الثقة بالنفس لهؤلاء الذين تبنوا تلك الأفكار، وهي ثقة بالنفس عززت

تعزيزاً قوياً التضامن وفق (نحن-ضد-هم) التي ميزت كل جماعات الناس المتعاطفة ذات التوجهات العقلية المتشابهة. وتميل المعارك البيروقراطية إلى تقوية النزعات إلى تضامن المجموعة، وهو أمر طبيعي في كل بني البشر في طرق يجب أن تكون مجربة ومفهومة فهماً كاملاً. وهذا ما كان كله قد تزايد أكثر على النحو المشار إليه حين تؤخذ بالحسبان مخاطر المعارك الإيديولوجية في أثناء نهاية الحرب الباردة.

إن القيادة العظيمة تتضمن أحياناً أن تضع جانباً الشك بالذات، ومعارضة الحكمة التقليدية، والاستماع فقط إلى صوت داخلي يخبرك بالشيء الصحيح الذي يجب أن تفعله. وهذا هو جوهر الشخصية القوية. والمشكلة هي أن القيادة السيئة يمكن أيضاً أن تتبع من هذه الخصائص نفسها: فالعزم الفولاذي يمكن أن يصير عناداً، والرغبة في السخرية من الحكمة التقليدية يمكن أن تصل إلى فقدان التعقل، والصوت الداخلي يمكن أن يصير خادعاً. وحقيقةُ أن المرء قد ثبت له أنه كان على حق بشكل غير متوقع تحت مجموعة مفاجئة من الظروف لا يعني بالضرورة أن هذا المرء سيكون على حق في المرة الثانية القريبة. وربما هي تعني، على كل حال، أن المرء سيكون معوقاً نفسياً في إدراك أنه مخطئ في حالات مستقبلية.

بعد عودة أنصار الحرب إلى السلطة في عام 2001، صاروا في وزارة الدفاع وفي مكتب نائب الرئيس عديمي الثقة، بشكل مفرط، بكل شخص لم يشاركهم آراءهم، وهو عدم ثقة امتد إلى

كولن باول وزير الخارجية وإلى الكثيرين من مجتمع الاستخبارات. إن القبلية البيروقراطية موجودة في كل الإدارات، ولكنها ارتفعت إلى مستويات سامة في فترة ولاية بوش الأولى. وتفوَّق الولاء للفريق على النقاش بعقول منفتحة، وكان ذلك مسؤولاً مسؤولية مباشرة عن فشل الإدارة في التخطيط تخطيطاً كافياً للفترة اللاحقة بعد نهاية القتال الفعلي.

بعد المحافظين الجدد

المبادئ الأربعة للمحافظين الجدد المذكورة سابقاً كانت محل مشاركة واسعة لا من المحافظين الجدد فقط، بل من جماعات مهمة أخرى كذلك تنتشر عبر طيف الحياة السياسية الأمريكية. ومبدأ السياسة الخارجية المستندة إلى الديمقراطية والداعية إلى التعاون لخير الأمم هو مبدأ كان مشتركاً تبناه كثيرون من الحزب الديمقراطي، والإيمان بالأهداف الأخلاقية النهائية للقوة الأمريكية والارتياب في المؤسسات الدولية كانا كلاهما فكرتين واقعيتين، والتشاؤم بشأن الهندسة الاجتماعية كان مشتركاً مع اليمين المحافظ. ولكن، حين توضع كلها معاً في حزمة واحدة، فإنها تمثل مدخلاً متميزاً إلى السياسة الخارجية.

ومع ذلك، فكما لاحظنا في الفصل الأول، فإن هذه المبادئ النظرية قد فُسّرت بعد الحرب الباردة بطرق خاصة أنتجت أحكاماً كانت متحيزة في اتجاهات منهجية معينة. وهذه التحيزات قد تكون

obeikandl.com

جيدة أو سيئة اعتماداً على طبيعة العالم الخارجي، وكما تبين في النهاية، صارت هي الأساس لما أعتبره أنا عدداً من العثرات التي زلت بها إدارة بوش.

وبعد انهيار الشيوعية مال المحافظون الجدد إلى المغالاة في تقدير مستوى التهديد الذي يواجه الولايات المتحدة. ففي أثناء الحرب الباردة اتخذوا على النحو الصحيح (في رأيي) الرأي المظلم من التحدي الذي طرحه الاتحاد السوفيتي، واعتبروه تهديداً عسكرياً وشراً أخلاقياً معاً. وبعد انحلال الاتحاد السوفيتي، حين برزت الولايات المتحدة بوصفها القوة الكبيرة الوحيدة في العالم، استمر كثيرون من المحافظين الجدد في رؤية العالم مسكوناً بتهديدات خطيرة وغير مقدرة حق قدرها.[38] بعضهم رأى الصين، مع حلول أواخر التسعينيات من 1990، بوصفها القوة الكبيرة الجديدة المنافسة، وهو موقع أنقذتها منه هجمات 11 أيلول/سبتمبر فقط. وكان تهديد القاعدة تهديداً حقيقياً بما فيه الكفاية، طبعاً، وما من أحد احتاج إلى اختراع أعداء جدد للولايات المتحدة. ولكن التهديد الإرهابي أُدمِج مع تهديد الدول المارقة/وانتشار أسلحة التدمير الشامل بطريقة جعلته يبدو منذراً بنتائج كارثية تماماً. وكانت عقيدة الحرب الوقائية، ومستوى المخاطر العالي على نحو هام والذي اقتضته هذه الحرب، ردي فعل معقولين إذا قبل المرء فقط هذه الافتراضات الواسعة حول طبيعة التهديد.

والمحافظون الجدد، مثلهم مثل معظم الأمريكيين، كان لديهم من البداية إحساس قوي بالاستخدامات الأخلاقية الممكنة للقوة

الأمريكية، وهي التي سبق أن استخدمت طوال تاريخ الجمهورية لمقاتلة الاستبداد ولتوسيع الديمقراطية حول العالم. ولكن الإيمان بإمكانية ربط القوة والأخلاق حُوِّل إلى مغالاة هائلة في التشديد على دور القوة، وعلى وجه التخصيص القوة العسكرية منها، بوصفها وسيلة لتحقيق الأهداف القومية الأمريكية.

والقرار في استخدام القوة عاجلاً لا آجلاً، أو في التشديد بصلابة على القوة الناعمة، هو نموذجياً مسألة حصافة أكثر مما هو مسألة مبدأ. ومع ذلك فإن المسؤولين الذين شغلوا مناصب في إدارة بوش، إضافة إلى مساندیهم من خارج الإدارة، كانوا قد ركزوا، على الأرجح، طول مسيراتهم الوظيفية على القتال عالي الشدة أكثر مما ركزوا على إعادة البناء بعد النزاع، أو على ميزانيات الدفاع أكثر من معونة التنمية، بوصفها قضايا للسياسة. وما من أحد كان معارضاً من حيث المبدأ على استخدام القوة الناعمة، وهم ببساطة لم يفكروا فيها تفكيراً كثيراً جداً. وكما يقول المثل، حين تكون المطرقة هي أداتك الوحيدة، فستبدو كل المشكلات مثل المسامير.

والافتراضات المفرطة بالتفاؤل حول العراق بعد صدام أعدت المسرح للفشل في التفكير من خلال متطلبات الأمن وبناء الدولة بعد النزاع. لقد تم تصور تغيير النظام لا بوصفه مسألة بناء بطيء ودؤوب للمؤسسات الليبرالية والديمقراطية وإنما ببساطة بوصفه المهمة السلبية، وهي التخلص من نظام الحكم القديم. والتحيز لصالح القوة العسكرية ذات التقانة العالية بوصفها الأداة الرئيسية

للسياسة، يستمر إلى هذا اليوم: وفي حين أن مجلة الويكلي ستاندرد انقلبت ضد دونالد رمسفيلد ودعت إلى استقالته، فإن نقدها الرئيسي له يبقى هو فشله في توفير قوات كافية لتأمين العراق، أكثر مما هو نقد الأبعاد الأخرى المتعددة لبناء الدولة وهو المجال الذي كانت سياسة الولايات المتحدة فيه غير كافية وقصّرت في الوصول إليه.

ويشترك المحافظون الجدد مع الواقعيين في الارتياب في قدرة القانون الدولي والمؤسسات الدولية على حل مشكلات الأمن الخطيرة، وهو ارتياب كان قد تعزز بشكل كبير بخبرة الحرب الباردة. ولكن ازدراء آراء "المجتمع الدولي"، كما هو مجسد في الأمم المتحدة، توسع إلى ازدراء أي بلد لم يساند فعلياً سياسات إدارة بوش مساندة إيجابية. وفي أثناء الحرب الباردة، كان المحافظون الجدد من الدعاة المصممين إلى الأطلسية(*) الذين يحاجون في أن الاتحاد السوفيتي مثّل تهديداً للحريات العامة التي يشترك فيها الأوروبيون والأمريكيون. واستمر المحافظون الجدد في التسعينيات من 1990 في المحاجّة في أنهم كانوا ينحازون لصالح تعدد الأطراف إذا شمل ذلك البلاد التي كانت ديمقراطيات حقيقية، أي حلف الأطلسي. ولكن حين صار واضحاً أن حلف الأطلسي لن يدعم التدخل في العراق، فقد المحافظون الجدد أي اهتمام بالعمل من خلال الحلف. ومع حلول الوقت الذي بدأت فيه

(*) عقيدة التعاون بين دول أوروبة الغربية وأمريكا الشمالية في القضايا السياسية، الاقتصادية، والدفاعية.

الحرب، بلغ حلفاء أمريكا الأوربيون مبلغ أن يكونوا مشيطَنين على نحو متزايد بوصفهم معادين للأمريكيين، أو لاساميين، أو ديمقراطيين ناقصين بطريقة ما. وخُفضت تعددية الأطراف إلى أن صارت تعني قبول المساعدة من أولئك الذين قدموها وفق الشروط الأمريكية فقط: "تحالفات الرغبين".

الارتياب بشأن القانون الدولي والقتال مع الأوروبيين على العراق كان يعني أن المحافظين الجدد لم يكونوا يمتلكون فعلياً أي شيء مجَدِّد أو مثير للاهتمام ليقولوه حول الإمكانيات الجديدة من أجل منظمة متعددة الأطراف. وهم يفضلون كثيراً أن يعزفوا على نواحي فشل الأمم المتحدة في فضيحة النفط في مقابل الغذاء أكثر من التفكير في شأن الكيفية التي ينشئون بها منظمة للديمقراطيات التي تبني الحوافز لتحسين الحكم والديمقراطية حول العالم. في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة، استُخدمت القوة الأمريكية لا لمجرد ردع العدوان السوفيتي فقط بل لإنشاء فوضى من المنظمات الدولية والاتفاقات، ابتداء من مؤسسات بريتون وودز (البنك الدولي، وصندوق النقد الدولي) إلى الأمم المتحدة، وحلف الأطلسي، ومعاهدة الأمن الأمريكية-اليابانية، ومعاهدة آنزوس (استراليا، ونيوزيلندا، والولايات المتحدة)، وغات (الاتفاقية العامة للتعرفات والتجارة) وأمثالها. وكانت إدارة بوش ومساندوها من المحافظين الجدد نقَّادين جداً للمبادرات الدولية الموجودة مثل بروتوكول كايوتو والمحكمة الجنائية الدولية، ولكنهم لم يقدموا أي بدائل في مكانها يمكن أن تمنح الشرعية لفاعلية العمل الأمريكي في العالم وتزيد منها.